دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

تراثيات

مجلة علمية محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

العدد الثالث والعشرون

يوليو ٢٠٢٣م

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
أ.د أسامة طلعت
رئيس مجلس الإدارة

تراثيات/مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث بدار الكتب . ـ س ١، ع ١ (يناير ٢٠٠٣).

. ـ القاهرة:

مطبعة دار الكتب ، ٢٠٠٣ - .

مج ؛ ٢٩سم.

نصف سنوية.

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لايجوز استنساخ أى جزء من هذا العمل بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٣/١٢٢٠٧

تراثيات

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. أسامة طلعت

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية
د. أشرف قادوس

رئيس التحرير
أ. د. إبراهيم الهدهد

سكرتير التحرير
د. نورا عبدالعظيم

مستشارو التحرير

إبراهيم شبوح
(تونس)

أحمد شوقى بنبين
(المغرب)

أسامه ناصر النقشبندى
(العراق)

رضوان السيد
(لبنان)

فيصل الحفيان
(سوريا)

يحيى محمود بن جنيد
(السعودية)

دار الكتب والوثائق القومية

المراسلات
مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية
كورنيش النيل- رملة بولاق - القاهرة
ت : ٥٧٥١٠٨٦ - فاكس : ٥٧٨٩٦٧٨
E-mail:scenlers@darelkotob.org

مدير المطبعة
محمود يونس سيد

في هذا العدد

افتتاحية العدد — رئيس التحرير — ٥

بحوث ودراسات :

- الأسس اللغوية والرياضية لعلم تركيب وحل الشفرة عند العرب — أ. د. أحمد عزب — ٩
- بَيْنَ الأُدَباءِ والنُّحَاةِ إِشْكَالِيَّةُ (الْجَفَنَاتِ والأَسْيَافِ) في بَيْتِ حَسَّانَ رضي الله عنه — أ.د. أحمد عيد عبد الفتاح حسن — ٥١
- التراث العلمي لمكة المكرمة في عصر الراشدين — أ. د. صلاح الدين علي عاشور — ٧٥
- الْكَوَارِثُ الطَّبِيعِيَّةُ والْبَشَرِيَّةُ، وأَثَرُهَما فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة خِلالَ الْقُرُونِ الأَرْبَعَةِ الأُوْلَى لِلْهِجْرَةِ — د. محمود محمد خلف - أ. هادي محمد نمشان الحارثي — ١٠٧
- بنو الأحمر والمماليك (دراسة تاريخية في العلاقات) — د. نورا عبدالعظيم — ١٤١
- البيمارستانات في القاهرة — د. منى علي أبو العزم — ١٦٥
- علم التعمية من صور سَبْق الحضارة الإسلامية — أ. إكرامي عشري — ١٨٥

افتتاحية العدد

الحمد لله على نعمة التوفيق، وبعد

تتحف مجلة تراثيات قراءها في هذا العدد بلوحة معرفية تراثية في هذا العدد:

البحث الأول :الأسس اللغوية والرياضية لعلم تركيب الشفرة وحلّها عند العرب ،وهذا البحث يبين سبق العرب لهذا الموضوع من خلال التنقيب في التراث العلمي واللغوي ، والبحث الثاني :يبحر في التراث بين الأدباء والنحاة لبيان معني الجفنات والأسياف وأسس البناء الصرفي للجمع ودلالاته عند النحاة والأدباء ، وهو مبني على الإبداع النقدي للخنساء في العصر الجاهلي ، والبحث الثالث: يكشف التراث العلمي لمكة المكرمة في عصر الخلفاء الراشدين وقد دبجّه مؤرخ مجيد والبحث الرابع : يعود بنا إلى القرون الأربعة الأولى كاشفًا أثر الكوارث الطبيعية والبشرية وأثرها في مكة المكرمة ،والبحث الخامس : يرصد العلاقات التاريخية بين بني الأحمر والمماليك ، والبحث السادس: نادر لطيف يرصد البيمارستانات في القاهرة ، أما البحث السادس :فهو نادر التوجه دقيق إذ يبين لنا سبق الحضارات الإسلامية لعلم التعمية ، وأسرة التحرير تتمني لقرائها وقتًا نافعًا ممتعًا معها.

رئيس التحرير

أ.د/إبراهيم الهدهد

بحوث ودراسات

الْكَوَارِثُ الطَّبِيعِيَّةُ والْبَشَرِيَّةُ، وأَثَرُهَما فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة خِلالَ الْقُرُونِ الأَرْبَعَةِ الأُولَى لِلْهِجْرَةِ

د. محمود محمد خلف(*)

أ. هادي محمد نمشان الحارثي(**)

المقدمة:

لقد احتل الحرم المكي الشريف مكانة عظيمة في قلوب المسلمين قديمًا وحديثًا، بل فضّل بعضهم سكنى البيت الحرام، فعُرِف بـ (جار الله). وكان على رأس هؤلاء ــ وفي مقدمتهم ــ الرحالة والمؤرخون الذين أخذوا يسجلون ما وقع من أحداث خلال تلك الزيارات، فكانت كتاباتهم زادًا لطلاب العلم من بعدهم للوقوف على تاريخ هذا البلد الأمين، ومن ثم معرفة الكوارث والأوبئة التي تعرض لها على مر العصور.

فلا يخفى علينا أن مَكَّة الْمُكَرَّمَة قد تعرضت لكثير من الكوارث الطبيعية والبشرية، مما كان له أكبر الأثر في حياة المدينة المقدسة عامة، وفي حياة المجاورين في بيت الله الحرام خاصة.

التمهيد: المدخل الجغرافي

أطلق الجغرافيون العرب اسم الحجاز على الجبال الحاجزة بين الأرض العالية (نجد) وبين الساحل الواطئ (تهامة)، فهو إذن الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير[1]. لكن اسم الحجاز في العرف يشمل تهامة أيضًا، وقد عد بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز[2]. ويصل طول الحجاز من الشمال إلى الجنوب حوالي ٧٠٠ ميل، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٣٥٠ ميلاً. وتعد جبال السراة العمود الفقري لشبه جزيرة العرب[3].

وبعض قمم هذه الجبال الحجازية مرتفعة، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع ٢,٣٠٠ م عن سطح البحر. وجبل وتر، وجبل شيبان. وتنخفض هذه

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية،

(**) باحث دكتوراه في قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية، منيسوتا، أمريكا.

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٦٧، ومعجم البلدان ٢/ ١٣٧.

(٢) البلدان ٣/ ٢١٨.

(٣) مَكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٢١.

السلاسل عند دنوها من مكة فتكون القمم في أوطأ ارتفاع لها، ثم تعود بعد ذلك للعلو، فتصل في اليمن إلى مستوى عال حيث تتساقط الثلوج على قممها[١]. ومن جبال الحجاز؛ الجبال الواقعة في منطقة الطائف ومكة والمدينة، وجبال الطائف يبلغ علوها ستمائة متر، وجبل كَرَا في الطريق بين مكة والطائف ويبلغ علوه مائتي مترٍ. وجبل رضوى بين المدينة وينبع، ويرتفع إلى مائتي متر[٢].

وأما مَكَّة الْمُكَرَّمَة، فهي تقع في واد على شكل سهل منبسط محاط بجبال ذات شعاب تحيط بالوادي إحاطة كاملة. وقد أغنت على مر الزمن عن بناء سور لحماية المدينة. فمن الممكن للقافلة التي تنزل في هذه البقعة أن تتحصن في هذه الشعاب بواسطة حراسها، كما يوجد بها بئر يستقي منه المسافر وهو بئر زمزم. وبمكة وجد البيت الحرام الذي عاصر أولية هذه المدينة، بل إنه -كما تقول بعض الروايات- هو أول بناء فيها، وقد أكسبها حرمة وقدسية، وجعلها مهوى أفئدة العرب جميعًا، الأمر الذي ضمن لها التفوق على غيرها من مدن الحجاز[٣].

المبحث الأول: الكوارث التي هددت مَكَّة الْمُكَرَّمَة

ما أن يصل الحاج أو المعتمر أو طالب العلم إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة ويحط رحله بها، إلا وتأخذه السكينة، ويشعر بالراحة، وتطمئن نفسه لرؤية بيت الله الحرام. وما أن يفرغ من أداء المناسك، إلا ويظل قلبه محبًا لبيت الله الحرام، فيأنس بجواره، ويمكث فيه إلى ما شاء الله تعالى، إما طلبًا للعلم، أو للعبادة، أو كليهما معًا.

ومع كل الخدمات التي كانت تُقدم من قِبل الخلفاء والولاة إلى المجاورين في بيت الله الحرام، إلا إنهم كانوا يتعرضون في بعض السنوات لكثير من المخاطر التي كانت تهدد حياتهم، وربما قد تودي بأرواحهم. ويمكنني أن أُقَسِّم هذه المخاطر إلى قسمين: أولهما: المخاطر الطبيعية، وثانيهما: المخاطر البشرية. ولا بأس أن أُلقي بعض الضوء عليهما:

أولاً- الكوارث الطبيعية

تختلف مناطق الحجاز من الناحية المناخية، كما تختلف من الناحية الطبيعية؛ فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة شحيحة المياه، محاطة بالجبال يعيش أهلها على ما

(١) المسالك والممالك، ص ٢٥.
(٢) معجم البلدان ٣/ ٥١.
(٣) المسالك والممالك، ص٢١، مكة والمدينة في الجاهلية، ص ٢٤.

يجلب إليها من الرزق جلبًا من الخارج، ومن هذه المناطق منطقة مَكَّة الْمُكَرَّمَة التي تقوم في واد غير ذي زرع، والتي كانت تعتمد في حياتها على ما يُجلب إليها من الخارج. كما أنها كانت شديدة الحرارة يهرع أهلها إلى الظلال وإلى أكنان الجبال التي تحيط بها يحتمون بها من الحر، وهذا ما أعطى أهمية كبرى لجبالها. كذلك كانت مَكَّة الْمُكَرَّمَة شحيحة المياه، وهذا ما جعل مهمة السقاية، وهي توفير الماء للحجاج، فضيلة عظيمة في نظر أهلها، وهذا يجعلنا ندرك الحفاوة البالغة التي أسبغت على رواية حفر بئر زمزم بها[١].

السيول

من المعروف أن الجزيرة العربية تقل فيها الأنهار والبحيرات، ولكن قد تسقط عليها الأمطار فجأة بشكل غزير؛ مما يؤدي إلى سيول جارفة؛ فقد ساعدت الأودية في جزيرة العرب على توفير مكان لهذه الأمطار للتجمع في هيئة سيول. وشهدت الدولة الإسلامية على مدار القرون الهجرية الأربعة الأولى العديد من السيول التي كان لها آثار سلبية على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وعلى الرغم من الآثار السلبية للسيول؛ من هدم للمنشآت وتدمير للممتلكات، فإنه كان لها في الوقت نفسه جوانب إيجابية على المستوى الاقتصادي والتنموي، عززها ما ابتكرته الدولة الإسلامية خلال تلك الحقبة من طرق ووسائل لمواجهة تلك السيول، وتحويلها لعامل بناء وتنمية، من خلال حفظ مياه السيول، والتحكم في مساراتها[٢].

في العصر الجاهلي: مما تجدر الإشارة إليه أن مَكَّة الْمُكَرَّمَة، بحكم موقعها الجغرافي، تعرضت لكثير من الأمطار العزيزة التي ربما تفاقمت لتصل إلى حد السيول، فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن سيلاً نزل ببيت الله الحرام قبل بعثة النَّبِيَّ ــ ﷺ ــ بحوالي خمسة أعوام، وبلغ من شدته أن هدَّم جدران الكعبة المشرفة، فعزمت قريش على إعادة بنائها، وقسَّمت العمل بين بطونها، وكان النَّبِيُّ ــ ﷺ ــ يعمل بنفسه معهم، ويحمل الحجارة، حتى إذا ارتفع البناء نحو قامة الرجل اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه؛ كل قبيلة تريد أن تحوز هذا الشرف دون غيرها، واشتد الخلاف بينهم حتى تداعوا إلى الحرب، ففزع أبو أمية بن المغيرة، وخَشِيَ عاقبة ذلك، فأشار عليهم بأن يحتكموا إلى أول رجل يدخل عليهم، فوافقوا على ذلك[٣]. وكان النَّبِيَّ -ﷺ- أول داخل

(١) السيرة النبوية ١/ ١٢١- ١٢٣، ١٤٥- ١٦٤، مكة والمدينة في الجاهلية، ص ٢٧.

(٢) السيول في الجزيرة العربية خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وآثارها السلبية والإيجابية، ص ٣٣٩.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢/ ٢٧٢، السيرة النبوية ١/ ٢٨٠.

عليهم، فاستبشروا خيرًا، وقالوا: هذا الأمين رضينا به حكمًا، فطلب منهم أن يبسطوا ثوبًا، ثم وضع الحجر فيه، وطلب من زعماء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف، ليتمكَّنوا من رفع الحجر إلى موضعه، ثم أخذه النَّبِيَّ-ﷺ- بيده الشريفة، ووضعه في مكانه.

عصر الخلفاء الراشدين: وإذا انتقلنا إلى عصر الخلفاء الراشدين [١١ - ٤١ هـ/ ٦٣٢ - ٦٦١ م]، وبالتحديد في خلافة عمر بن الخطاب [١٣ - ٢٣ هـ/ ٦٣٤ - ٦٤٣ م] ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ، وقع السيل المعروف تاريخيًا بسيل (أُمِّ نَهْشَلٍ)[١]، وكان غزيرًا جدًا لدرجة أنه ذهب بمقام إبراهيم ــ عَلَيْهِ السَّلَامُ ــ من موضعه إلى أسفل مَكَّة الْمُكَرَّمَة. وقد أمر الخليفة بعمل الردم الذي بأعلى مكة صونًا للكعبة المشرفة[٢]، ثم اشترى الدور المجاورة للبيت الحرام، وهدمها وأضافها إلى مساحته، وأقام له جدرانًا، الجدار دون قامة الرجل، وبهذا أصبح المسجد الحرام أكثر سعة واستيعابًا لأعداد المصلين والحجاج والمجاورين. وهذه أول توسعة في التاريخ للمسجد الحرام، وقد بلغت مساحته بعد التوسعة [٣٦١٣] مترًا بزيادة [١٤٨٧] مترًا مربعًا[٣].

عصر الدولة الأموية: وفي عصر الدولة الأموية [٤١ -١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٤٩م] تعرضت المدينة المقدسة إلى عدة سيول، كان أولها ما وقع في أثناء فترة حكم عبد الله ابن الزبير [٦٤ - ٧٣هـ/ ٦٨٣ - ٦٩٢م]، وقد وصل من حجم السيول التي أصابت الحرم المكي، أن اضطر ابن الزبير إلى الطواف حول الكعبة سباحة[٤]. ثم أمر بتوسعة المسجد الحرام، وعمل سقفًا للمنطقة التي تمت توسعتها لتوفير الظل في المسجد، ومن ثم فقد أتاح للمجاورين مساحة أكبر داخل المسجد، وخاصة لَمَن لم يكن معتادًا على حر مَكَّة الْمُكَرَّمَة الشديد[٥].

وفي خلافة عبد الملك بن مروان [٦٥ -٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥ م] وبالتحديد في سنة ثمانين من الهجرة [٦٩٩م] وقع السيل المعروف بـ(سَيْلُ الْجُحَافِ)؛ لأنه جحف على كل شيء أمامه فذهب به، وحمل الحجاج والأمتعة من بطن مَكَّة الْمُكَرَّمَة حتى وصل إلى الحجون، ولم يستطع أحد مقاومته، مما أدى إلى وفاة كثير من الحجاج والمجاورين، كما

(١) سمي بذلك نسبة إلى أُمِّ نَهْشَلٍ بِنْتِ عُبَيْدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ التي ماتت في هذا السيل. أخبار مَكَّة وما جاء فيها من الآثار ٢/ ١٦٧.

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ١/ ٣٥٥، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ٢٦٠ ــ ٢٧٧.

(٣) شفاء الغرام ١/ ٢٢٤.

(٤) الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٨.

(٥) البداية والنهاية ١١/ ٦٩١، الكعبة على مر العصور، ص ٩٦.

خرب كثيرًا من البيوت والشوارع حتى ارتفعت المياه إلى أعلى المنازل[١].

كما وقع سيل شديد في خلافة الوليد بن عبد الملك [٨٦ - ٩٦ هـ/ ٧٠٥ - ٧١٤م]، وذلك أثناء ولاية عمر بن العزيز على مَكَّة الْمُكَرَّمَة في سنة ثمان وثمانين [٧٠٧م]، حتى خاف الناس على أنفسهم خوفًا شديدًا وأخذوا يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء لكشف الكربة[٢]. وقد استغل الخليفة الوليد هذه الفرصة، فقام بتوسعة المسجد، وبنى سوره على عمد من الرخام، ووضع صفائح من الذهب على باب الكعبة. وقد بلغت هذه الزيادة نحو [٢٨٠٥] أمتار مربعة في سعة المسجد الحرام، بنسبة تقدر بـ ٣٨٪، لتصبح سعته الإجمالية (١٠٢٧٠) مترًا مربعًا، وقد تمت هذه الزيادة في سنة(٩١هـ/ ٧٠٩م)[٣]. فهذه أكبر زيادة تمت في عصر الدولة الأموية، فلم أعثر على إضافة حقيقية حدثت في مساحة المسجد الحرام، حتى سقوط الدولة الأموية في سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م).

وأما أخطر السيول الذي تعرضت إليها المدينة المقدسة في ظل الخلافة الأموية، فقد وقع في خلافة هشام بن عبد الملك [١٠٥ - ١٠٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢ م] ، فقد اجتاح مَكَّة الْمُكَرَّمَة سنة عشرين ومائة [٧٣٨م] سيل شديد عُرف بـ (سيل أبي شاكر)، نسبة إلى مسلمة[٤] بن هشام بن عبد الملك، ولعله كان ولي مَكَّة الْمُكَرَّمَة حينذاك[٥].

وهكذا يتضح لنا، أن مَكَّة الْمُكَرَّمَة والمجاورين في بيت الله الحرام، قد تعرضوا في ظل الخلافة الأموية إلى أربعة سيول ضخمة، أثرت على عمارة المسجد الحرام، وأودت بحياة مئات المجاورين، ومع ذلك فقد استغل بعض الخلفاء ما وقع بالمسجد من أضرار من أثر السيول فأمر بتوسعته، مما كان له أثر في زيادة عدد المجاورين في المسجد.

عصر الدولة العباسية: ظل خطر السيول يهدد المدينة المقدسة حتى في عصر الدولة العباسية [١٣٢ - ٦٥٦ هـ/ ٧٤٩ - ١٢٠٠م]، ــ فترة البحث ــ فإننا نجد مَكَّة الْمُكَرَّمَة قد تعرضت إلى كثير من السيول، كان أولها ما وقع في خلافة المهدي العباسي [١٥٨ - ١٦٩ هـ/ ٧٧٤ - ٧٨٥ م]، وذلك في شهر المحرم سنة ستين ومائة [٦٦٦م] ،

(١) أخبار مكة ٢/ ١٦٨، ٢٤٨ ــ٢٥١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٤٣٥، البداية والنهاية ٩/ ٣٩.

(٣) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، ص ٥٩، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر، وغير ذلك، ص٤٩.

(٤) ذكر أحد الباحثين المعاصرين أن اسمه (سلمة)، السيول في الجزيرة العربية، ص٣٥١. ولعل الصحيح ما ذكرته انظر: العقد الثمين ١/ ٦١ ــ٣٥٦ .

(٥) أخبار مَكَّة في قديم الدهر وحديثه ٣/ ١٠٨ .

والمعروف باسم (السيل الليبري)، ووصل من شدته أنه وصل أعلى الكعبة[١]. وعلى إثر ما وقع بالمسجد من تصدع وتدمير، قام الخليفة بزيادة كبيرة تقارب مساحة المسجد الحرام، فقد زاد فيه [١٢٥١٢] مترًا مربعًا، أي بنسبة ٨١٪ من مساحة الحرم المكي الشريف، فأصبحت المساحة الكلية [٢٨٠٠٣] أمتار مربعة. وقد أنفق عليها بسعة على مقياس ذلك العصر، وقد تمت التوسعة على مرحلتين، وهما:

الأولى: شملت توسعة المسجد الحرام من أعلاه، وتمت الاستعانة بأساطين من رخام جُلب من بلاد الشام، وأضاف خمسة أبواب. وقد تمت هذه التوسعة في سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م).

الثانية: حدثت بعد دراسات استمرت ثلاث سنوات، لمعالجة تحويل مجرى سيل وادي إبراهيم لتربيع المسجد الحرام، وبدأت هذه التوسعة سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)، وتوفي الخليفة المهدي قبل أن تكتمل، فأكملها الخليفة الهادي عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م)[٢].

وعلى ذلك، فإن الخليفة المهدي قد أضاف جزءًا من مجرى وادي إبراهيم، وكذلك جزء من المنطقة القريبة من المسعى إلى المسجد. وتوسع المسعى في المكان الذي نتج عن هدم البيوت في الجهة المقابلة. كذلك فإن المهدي قد زاد في الجهتين: الشمالية، والغربية من المسجد. وأحاط صحنه بأروقة تقوم على أعمدة من رخام، وقد غطيت هذه الأروقة بسقف جميل من خشب النيك. وضمت العمارة (٤٨٤) عمودًا رخاميًا، موزعة على جهات المسجد الأربع، وارتفاع كل عمود(٤,٨) أمتار، وسمك محيطه(١,٤٤) مترًا، وارتفاع جدار المسجد كان (٩,٦) أمتار[٣].

وهذه الزيادة تعتبر درة في جبين الدولة العباسية، فقد ظلت هذه التوسعة إلى أن بدأ العمل في عصر الدولة المملوكية [٦٥٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٩ - ١٥١٧م]، ومنذ ذلك الوقت أُدخلت الكثير من التجديدات التي جعلت من المسجد مثار إعجاب الحجاج والزوار والمجاورين من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

كما وقع في خلافة هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨ م]، وبالتحديد في سنة أربع وثمانين ومائة [٨٠٠م]، سيل عظيم عُرف بـ(المخبل)؛ لأنه أصاب الناس بعده شبه الخبل[٤].

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٧٩، العقد الثمين ١/ ٦٠ .
(٢) الأزرقي: تاريخ مكة ٢/ ٧٦، تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف إلى نهاية العصر العباسي الأول، ص ١٧٩.
(٣) الأزرقي: تاريخ مكة ٢/ ٧٥، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ٥٤ .
(٤) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٧٠، الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ١٠٤ .

وفى خلافة المأمون [١٨٩- ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م] تعرضت المدينة المقدسة إلى سيلين عظيمين كان أحدهما يعرف: بـ(سيل ابن حنظلة)، وقع في شهر المحرم سنة اثنتين ومائتين [٨١٧م]، والآخر وقع في شهر شوال سنة ثمانٍ ومائتين [٨٢٣م]، وقد ترتب عليهما وفاة كثير من المجاورين، كما أضر بالمسجد الحرام إضرارًا بالغًا، حتى اضطر مبارك الطبري ولي بريد مَكَّة الْمُكَرَّمَة إلى الكتابة إلى الخليفة المأمون في ذلك، فلما رأى المجاورين ما وقع بالمسجد اجتمعوا وكانوا يعملون بأيديهم، ويستأجرون من أموالهم، وينقلون التراب ومخلفات السيل، حتى أن النساء كن يخرجن بالليل للعمل على نظافة المسجد التماس الأجر. كما بعث الخليفة أموالًا عظيمة لإعادة إعمار المسجد الحرام، وإصلاح ما وقع به من أضرار[١].

استمرت السيول تجتاح مَكَّة الْمُكَرَّمَة حتى العصر العباسي الثاني، ففي خلافة المعتز بالله [٢٥٢ - ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ -٨٦٩م] جاء مَكَّة الْمُكَرَّمَة سيل عظيم، ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة المشرفة، وبلغ من شدته أن وصل إلى الحجر الأسود، وهدم دورًا كثيرة، وذهب بأمتعة الناس وخرب منازلهم، وكان ذلك في سنة [٢٥٣هـ/ ٨٦٧م][٢].

وفي سنة [٢٦٢هـ/ ٨٧٦م] وفي خلافة المعتمد على الله [٢٥٦ - ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢م]، جاء سيل عظيم فدخل الحرم المكي، وذهب بفراشة المسجد وأمتعة المجاورين[٣].

وفي العام الذي يليه [٢٦٣ هـ/ ٨٧٧م]، جاء سيل عظيم ــ أيضًا ــ ودخل المسجد الحرام، حتى امتلأ المسجد، ووصل الماء قريبًا من الحجر الأسود، حتى خيف على المقام، فرُفع من موضعه وأُدخل جوف الكعبة خوفًا عليه من شدة السيل[٤].

وفي سنة [٢٨١هـ/ ٨٩٤م]، تعرض المسجد الحرام إلى سيل عظيم، دمر كثيرًا من أساسيات المسجد، فأمر الخليفة المعتضد بالله العباسي [٢٧٩ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢م] بإدخال دار الندوة وضمها إلى المسجد الحرام، ويقال: إن هذا المبنى كان يبدأ من مقام الحنفية ويمتد نحو الشمال. وعلى ذلك، فإن الخليفة المعتضد قد قام بزيادتين خارجتين عن تربيع المسجد الحرام، إحداهما: في الجهة الشمالية، وهي (دار الندوة)، حيث هدمت، وجعلت مسجدًا، وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب، وأصبحت رواقًا من أروقة المسجد الحرام، وأقيمت فيها الأعمدة، وسقف بخشب الساج، وجعل

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٧٠ ــ ١٧١، الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ١٠٤ .
(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٣١١، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/ ٣٣١ .
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٣١٢، إتحاف الورى ٢/ ٣٣٨ .
(٤) إتحاف الورى ٢/ ٣٣٩ .

السقف مسامتًا لسقف المسجد الحرام، كما جعل لها اثني عشر بابًا من الداخل، وثلاثة أبواب من الخارج، واستغرقت هذه الزيادة ثلاث سنوات، وتمت في سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٦م)[١].

وبعد ذلك بقليل، وبالتحديد في سنة [٢٩٧هـ/ ٩٠٩م] وفي خلافة المكتفي بالله [٢٨٩ - ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨م] تعرض المجاورون في بيت الله الحرام إلى سيل شديد أغرق أركان البيت الحرام الأربعة، وفاضت بئر زمزم، وكان من أشد السيول على الإطلاق التي تعرضت لها مَكَّة الْمُكَرَّمَة منذ زمن بعيد[٢].

ظل الوضع هكذا في المسجد الحرام، حتى كانت خلافة المقتدر بالله العباسي [٢٩٥ - ٣٠٠هـ/ ٩٠٨ -٩٣٢م]، وبالتحديد في سنة (٣٠٦هـ/ ٩١٨م) فقد تعرض المسجد الحرام إلى سيل عظيم، فأرسل الخليفة أمهر العمال والصناع من مقر الخلافة العباسية إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة، فقاموا بإصلاح ما تهدم من المسجد، وعملوا على ضم البيوت المجاورة له، فزاد في مساحة الحرم المكي، وهذه الزيادة هي التي يُطلق عليها زيادة باب إبراهيم، وشملت دارين للسيدة زبيدة، فأدخلت مساحتهما في المسجد الحرام، وجُعل لها باب كبير هو باب إبراهيم، وقد استمر العمل في هذه الزيادة ما بين عامي (٣٠٦هـ ــ ٣٠٧هـ/ ٩١٨ ــ ٩١٩م)، وبذلك تمت توسعة المسجد من الجهة الغربية[٣].

وأما آخر السيول التي تعرضت لها مَكَّة الْمُكَرَّمَة ــ خلال فترة البحث ــ، فهي ما وقع في سنة [٣٤٩هـ/ ٩٦٠م]، في خلافة المطيع لله [٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٥ -٩٧٤م]، فقد جاء المجاورين سيل عظيم فأخذهم عن آخرهم[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه أقيمت المنارات التي أصبح المؤذنون ينادون بالأذان منها، بعد أن كان الأذان من على سطح المسجد. وقد زاد عدد هذه المآذن تدريجيًا حتى بلغ عددها سبعًا. وتحيط بصحن المسجد أعمدة نُحاسية صغيرة، والتي أقيمت منذ مدة، وهي موصولة بقضبان معدنية تحمل المصابيح، لإنارة المطاف أمام مَن يريد الطواف في المساء والليل. وكان يوجد بين كل عمودين من هذه الأعمدة النحاسية سبعة مصابيح زيت زجاجية معلقة.

(١) شفاء الغرام ١/ ٢٢٦، إتحاف الورى ٢/ ٣٤٩ .
(٢) مروج الذهب،٤/ ٣٠٧.
(٣) تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ٦٥، خلاصة الكلام، ص: ١٠٧.
(٤) البداية والنهاية، ١٥/ ٢٤٢، تاريخ الخلفاء، ص: ٢٨٦.

ويبدو أن أول مَن أحدث منارة في المسجد الحرام كان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، فقد أنشأ منارة بباب العمرة، وكان ذلك في عمارة أبي جعفر للحرم المكي، وليست هناك مواصفات لهذه المنارة أو ارتفاعها(١). وفي خلافة المهدي العباسي أنشأ ثلاث منائر: إحداها على باب السلام، والثانية على باب علي، والثالثة على باب الوادع. وفي خلافة المعتضد بالله العباسي [٢٧٩ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢م] أنشأ منارة خامسة في زيادة دار الندوة، بين باب الزيادة وباب القطبي.

أما عن أبواب الحرم المكي، فقد اهتم حكام المسلمين بكافة أمور المسجد الحرام، ومنها الأبواب الخاصة بالمسجد، فالأبواب في الجهتين: الجنوبية، والشرقية، المؤدية على الشارع، تحمل زخارف ونقوشًا وكتابات لآيات قرآنية جميلة ورائعة، ولا تقل روعة عن الزخارف الموجودة على الأبواب الأخرى للمسجد، التي تؤدي عبر ممرات طويلة وضيقة على الأحياء الداخلية من المدينة(٢). ومن الجدير بالذكر أن أبواب المسجد الحرام قد اختلفت بمرور الزمن؛ نظرًا للتوسعات المتعاقبة التي تمت في الحرم المكي. يروي المؤرخون أنه كان للمسجد الحرام في عهد المهدي [١٩] بابًا(٣).

صفوة القول: أن هذه السيول ــ ربماــ كانت تؤدي على إزهاق كثير من الأرواح، مما يترتب عليه تغيير في الديموغرافية السكانية للمدينة، حيث وصل عدد الضحايا في بعض السنوات إلى الآلاف من الموتى. يضاف إلى ذلك انتشار الأمراض والأوبئة بسبب تراكم المياه في الأودية وتكوين المستنقعات، فينتشر البعوض المسبب لحمى الملاريا؛ مما يسبب وفاة كثير من المجاورين(٤).

والرغم من هذه الآثار السلبية، إلا أنها كانت لها كثير من الآثار الإيجابية، ومن أهمها: أن المجاورين في بيت الله الحرام لم يتقاعسوا عن نظافة وخدمة بيت الله الحرام، بل أن كثيرًا من النساء قد شاركن في هذا العمل. يضاف إلى ذلك أن الخلفاء كانوا يهرعون إلى تقديم المساعدة للمجاورين في إزالة ما لحق بالمسجد من أضرار، ثم سرعان ما يقومون بتوسعة المسجد وإنارته أكثر من ذي قبل؛ مما ساعد على زيادة أعداد المجاورين.

(١) صفحات من تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ص: ١٩٢.

(٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ١٩٨ .

(٣) استقر عدد الأبواب في العمارة العثمانية على [٢٦] بابًا. أما الآن فعدد أبواب المسجد الحرام [٤٥] بابًا، منها أربعة رئيسة، وهي:(باب الملك عبد العزيز، وباب الفتح، وباب العمرة، وباب الملك فهد)، تعلو كل منها منارتان تبرزان المداخل الرئيسة بشكل يوحي بعظمة المكان.

(٤) السيول في الجزيرة العربية، ص ٣٥٤ .

الجفاف

على الرغم من شدة السيول التي كانت تجتاح شبه الجزيرة العربية، ومنها إقليم الحجاز، إلا أن الجفاف الذي كان يلحق بلاد العرب جميعًا -والحجاز منها- قد جعل أغلب أراضيها صحراء جرداء، وباعد بين مراكز الاستقرار بها[١]. وقد عمل أهل الحرم المكي على معالجة هذه المشكلة، من خلال ما نظمته من السقاية ؛ فمنطقة مكة حارة شحيحة المياه، وهي لكي تستقبل عددًا كبيرًا من الحجاج والمجاورين لا بد أن توفر فيها المياه بحالة منظمة؛ حتى لا يلقى الحاج والمجاور من قلة الماء ما يضطره إلى الخروج منها أو العزوف عن القدوم إليها؛ لذلك جعلت قريش من عملية توفير الماء للحجاج والمجاورين وظيفة مهمة، بل جعلتها أهم الوظائف في مكة، ووكلتها إلى أعظم البيوت القرشية[٢].

وقد نال هذا العمل عناية كبيرة من سادات قريش في الجاهلية، فقد جعلها قصي ابن كلاب وظيفة مقررة وتولاها بنفسه، وقام بحفر الآبار في منطقة مَكَّة الْمُكَرَّمَة، كما عملت بطون قريش على الإكثار من حفر الآبار؛ لتواجه الزيادة المطردة في عدد الحجيج الوافد على الكعبة[٣]، وأصبحت السقاية من الوظائف التي تفاخر بها وتراها من أجل الأعمال، إلى جانب عمارة البيت الحرام والقيام على سدانته وتنظيفه وإعداده للزائرين، حتى لقد نوه القرآن الكريم بذلك، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٤].

العصر الجاهلي: وقد عمل أهل مَكَّة الْمُكَرَّمَة منذ العصر الجاهلي للتغلب على هذه المشكلة بحفر الآبار الارتوازية العميقة للحصول على الماء العذب، ومن ذلك ما قام به مُرَّةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ من حَفَرَ بِئْرًا يُقَالُ لَهَا (رُمَّ)، وَكانت عِنْدَ طَرَفِ الْمَوْقِفِ بِعُرَنَةَ قَرِيبًا مِنْ عَرَفَةَ. وَحَفَرَ كِلابُ بْنُ مُرَّةَ بِئْرًا يُقَالُ لَهَا (خُمٌّ)، كَانَتْ مَشْرَبًا لِلنَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وقام قُصَيُّ بْنُ كلاب بحَفَرَ بِئْرِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَة وَكَانَ يُقَالُ لَهَا (الْعَجُولُ)، كَانَ مَوْضِعُهَا فِي دَارِ أُمِّ هَانِي بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ بِالْحَزْوَرَةِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة يَرِدُونَهَا وَيَتَرَاجَزُونَ عَلَيْهَا، فَقَالَ قَائِلٌ فِيهَا: [من الرجز]

أُرْوَى مِنَ الْعَجُولِ ثُمَّتَ انْطَلِقْ

(١) الحجاز في صدر الإسلام؛ دراسات في أحواله العمرانية والإدارية، ص ١٣١، مكة والمدينة في الجاهلية، ص ١٤٧ .

(٢) السيرة النبوية ١/ ١٥٩- ١٦٢.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٥٨.

(٤) سورة التوبة: ١٩.

إِنَّ قُـصَـيًّـا قَـدْ وَفَى وَقَـدْ صَـدَقْ
بِـالـشِّـبْعِ لِـلْـحَـيِّ وَرِيِّ الْـمُـغْـتَـبِـقْ

وَحَفَرَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِئْرًا تسمى (بَذَّرَ)، وَقَالَ حِينَ حَفَرَهَا: «لأَجْعَلَنَّهَا لِلنَّاسِ بَلَاغًا»، وحَفَرَ ــ كذلك ــ بئر سَجْلَةَ، وَكَانَت فِي الْمَسْعَى. وَحَفَرَ عَبْدُ شَمْسِ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِئْرًا يُقَالُ لَهَا (الطَّوِيُّ)، وَحَفَرَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بِئْرًا يُقَالُ لَهَا(الْجَفْرُ)، وكانت بِطَرَفِ أَجْيَادِ الْكَبِيرِ. وَكَانَتْ لِبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (أُمُّ جِعْلانٍ)، مَوْضِعُهَا دَخَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَانَتْ لَهُمْ أَيْضًا بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (الْعُلُوقُ) بِأَعْلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة.

ثم تنافست البيوتات العربية العريقة في مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة لتنال شرف توفير السقاية للحجاج والمجاورين، فَكَانَتْ لِبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (شُفَيَّةُ)، وأخرى يُقَالُ لَهَا (بِئْرُ الْأَسْوَدِ). وَكَانَتْ لِبَنِي جُمَحٍ بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (السَّنْبَلَةُ)، فِي خَطِّ الْحِزَامِيَّةِ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة، وَكَانَتْ عِنْدَ رَدْمِ بَنِي جُمَحٍ بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (أُمُّ حَرْدَانَ)، وَكَانَتْ لِبَنِي سَهْمٍ بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (رَمْرَمُ)، دَخَلَتْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ وَسَّعَهُ أَبُو جَعْفَر المنصور، وَكَانَتْ لِبَنِي سَهْمٍ ــ أَيْضًا ــ بِئْرٌ يُقَالُ لَهَا (الْغَمْرُ)، وغيرها من الآبار المهمة[1].

عصر الخلفاء الراشدين: بقيام الدولة الإسلامية ازدادت الحاجة إلى الماء؛ لزيادة عدد المسلمين الحجاج والمعتمرين والمجاورين؛ لذا فقد تنافس المسلمون أفرادًا وحكومات في حفر الآبار الصالحة للشرب، ففي عصر الخلفاء الراشدين أمر الخليفة أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ [١١ - ١٣هـ/ ٦٣٢ - ٦٣٤م] بحفر بِئْرِ الْيَاقُوتَةِ بِمِنًى، وحفر عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ بِئْرًا آخر بِمِنًى ــ أيضًا ــ، وحفر بَنو مَخْزُومٍ بِئْرَ (الشُّرَكَاءِ) بِأَجْيَادٍ ، وحفر عِكْرِمَةَ بن أبي جهل [المتوفى عام ١٣ هـ/ ٦٣٤ م] ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ بئرًا بِأَجْيَادٍ الصَّغِيرِ فِي الشِّعْبِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الأَيْسَرُ، وحفر الأَسْوَدُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيِّ بئرًا يقال له (الصَّلا) فِي أَصْلِ ثَنِيَّةِ أُمِّ قِرْدَانٍ، وكَانَتْ لِعَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ الْجُمَحِيِّ، بئرًا يُقَالُ لَهَا (الطَّلُّوبُ)، وقام الصحابي الجليل أَبو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ [المتوفى عام ٤٤ هـ / ٦٦٥ م] ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ بحفر بئر بِالْمَعْلَاةِ عَلَى فَمِ أَبِي دُبٍّ بِالْحَجُونِ، حَفَرَهَا حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الْحَكَمَيْنِ إِلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة، وكان هناك بئر (الْبُرُود) حَفَرَهَا خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيُّ الْكَعْبِيُّ، وَبِئْرُ(بَكَّارٍ) بِذِي طَوِيٍّ، نسبة إلى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يسمى بَكَّارًا، وكَانَ مجاورًا في بيت الله الحرام، وبئر (وَرْدَانَ) مَوْلَى الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢١٤ ــ ٢٢٣، الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ٢٠٣.

وَدَاعَةَ بذِي طَوِيٍّ عِنْدَ سِقَايَةِ سِرَاجٍ بِفَخٍّ، وبئر (الصَّلاصِلِ) عِنْدَ مِنًى[١].

عصر الدولة الأموية: فإذا انتقلنا للحديث عن الآبار في عصر الدولة الأموية، فإننا نجد الخلفاء الأمويين قد أولوا هذا المشروع عناية فائقة منذ قيام الدولة على يد الخلفية معاوية بن أبي سفيان [٤١ -٦٠هـ/ ٦٦١ - ٦٧٩ م] ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ، والذي أَجْرَى فِي مَكَّة الْمُكَرَّمَة عُيُونًا كثيرة، واعتنى بها، حتى صارت بساتين فِيهَا النَّخْلُ وَالزَّرْعُ؛ مِنْهَا الْحَمَّامِ، وعَوْف، والصَّفِيُّ، ومُوَرِّش، وخُرْمَانَ، ومُقَيْصِرَةَ، وحِرَاءٍ، وابْنِ طَارِقٍ بِأَسْفَلِ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وفَخٍّ، وبَلْدَحَ. فَهَذِهِ الْعُيُونُ الْعَشْرُ أَجْرَاهَا ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ لتوفير المياه العذبة لأهل مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وفي مقدمتهم الحجاج والمجاورون[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن عوام المسلمين قد شاركوا في حفر ــ تلك ــ العيون لتوفير الماء العذب للمجاورين في الحرم المكي، ومن أمثلة ذلك ما قام به (شَوْذَب) مَوْلى الخليفة مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، والذي قام بحفر عين للماء العذب عُرفت باسمه؛ وكَانَتْ عِنْدَ بَاب بَنِي شَيْبَةَ ــ أحد أبواب الْمَسْجِد الحرام ــ ثم دَخَلَتْ فِي الْمَسْجِد حِينَ وَسَّعَهُ الخليفة الْمَهْدِيُّ العباسي فِي خِلَافَتِهِ فِي الزِّيَادَةِ الْأُولَى سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ [٧٧٨هـ]، والتي سبقت الإشارة إليها منذ قليل. وعين ابن العاص؛ نسبة إلى سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، وكانت في موضع بَلْدَحٍ. وعين سفيان، وكانت بالخيف أسفل مَكَّة الْمُكَرَّمَة[٣].

وفي فترة تداخل إمارة الأمويين مع خلافة عبد الله بن الزبير ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [٦٤ - ٧٣هـ/ ٦٨٣ - ٦٩٢ م]، أمر بحفر عين للماء العذب عُرفت بـ (السُّقْيَا) كانت عَلَى يَمِينِ الْمُقْبِلِ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى مِنًى[٤]. وفي خلافة سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْد الْمَلِك [٩٦ - ٩٩هـ/ ٧١٤ - ٧١٧ م] أمر واليه خَالِد بْنِ عَبْد اللَّه الْقَسْرِيِّ [٦٦ - ١٢٦هـ / ٦٨٦ - ٧٤٣م] بحفر عين للماء العذب لخدمة المجاورين. فَعَمِلَ خَالِدُ الْبِرْكَةَ الَّتِي بِفَمِ الثَّقَبَة، والتي يُقَالُ لَهَا (بِرْكَةُ الْقَسْرِيِّ)، وَيُقَالُ لَهَا ــ أَيْضًا ــ (بِرْكَةُ الْبُرْدِيِّ)، وبعَمِلَهَا بِحِجَارَةٍ مَنْقُوشَةٍ طِوَالٍ، وَأَحْكَمَهَا وَأَنْبَطَ مَاءَهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، ثُمَّ شَقَّ لَهَا عَيْنًا تُسْكَبُ فِيهَا مِنَ الثَّقَبَة، وَبَنَى سَدَّ الثَّقَبَة وَأَحْكَمَهُ، ثُمَّ شَقَّ مِنْ هَذِهِ الْبِرْكَة عَيْنًا تَجْرِي إِلَى الْمَسْجِد الْحَرَامِ، فَأَجْرَاهَا فِي قَصَبٍ مِنْ رَصَاصٍ، حَتَّى أَظْهَرَهَا فِي فَوَّارَةٍ تَسْكُبُ فِي فَسْقِينَةٍ مِنْ رُخَامٍ

(١) الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ١١٥ ــ ١١٦، العقد الثمين ١/ ١١ ــ ١٢.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧ ــ ٢٢٩، الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ١٢٣ ــ١٢٧.
(٣) العقد الثمين ١/ ١٣، الحجاز في صدر الإسلام، ص ١٣٧.
(٤) الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ١٣٨، العقد الثمين ١/ ١٢.

بَيْنَ زَمْزَمَ وَالرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وكانت تِلْكَ الْفَسْقِينَةُ فِي سَرَبٍ مِنْ رَصَاصٍ، يَخْرُجُ إِلَى وَضُوءٍ كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ بَابِ الصَّفَا، فِي بِرْكَةٍ كَانَتْ فِي السُّوقِ»[١]. ومن الجدير بالذكر أن هذه العين قد استمرت قائمة يستخدمها المجاورون حَتَّى قَدِمَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ [٨١ - ١٣٣هـ/ ٧٠٠ - ٧٥٠ م) واليًا على مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة من قبل الخليفة أبي العباس السفاح [١٣٢ - ١٣٦هـ/ ٧٤٩ - ٧٥٣ م]، فهَدَمَهَا، وَرَفَعَ الْفَسْقِينَةَ وَكَسَرَهَا، وَصَرَفَ الْعَيْنَ إِلَى بِرْكَةٍ كَانَتْ بِبَابِ الْمَسْجِدِ[٢].

عصر الدولة العباسية: وفي ظل الدولة العباسية شهدت مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة عامة، والمجاورون في بيت الله الحرم خاصة، عناية فائقة من الخلفاء العباسيين لتوفير الماء اللازم لهم. ولا يخفى علينا أن علماء الحضارة الإسلامية في مجال الهندسة، قد بلغوا ــ خلال تلك الفترة ــ شأنًا عظيمًا في هذا المجال الحيوي، فقد أمر الخليفة المنصور - المؤسس الحقيقي للدولة العباسية - إدراكًا منه بأهمية المياه، بإنشاء (ديوان الأكرية)، والذي كانت مهمته الأساسية الاهتمام ببناء السدود، وحفر الترع، وشق القنوات، وكري الأنهار[٣]. كذلك جعل العباسيون لمياه الري ديوانًا خاصًا يسمى (ديوان الماء) كان يشرف على هذا الديوان مهندس كبير يسمى (المَلاَّح) يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل. وكانت مهمة هذا الديوان كما يقول الخوارزمي: «يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه، وما يزيد فيه وينقص... ويحتفظ فيه بما يملكه كل منهم (المهندسون) من الماء، وما يباع وما يشترى منه»[٤].

وهكذا يتضح لنا أن الخلافة العباسية قد أدركت أهمية الماء، ومن ثم فقد حافظت عليه، ففي خلافة هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨ م] كَانَتْ الْعُيُونُ التي حفرها مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيان ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ والتي تمت الإشارة إليها منذ قليل ــ قَد انْقَطَعَتْ وَذَهَبَتْ، فَأَمَرَ الرَّشِيدُ بِعُيُونٍ مِنْهَا، فَعُمِلَتْ وَأُحْيِيَتْ وَصُرِفَتْ فِي عَيْنٍ وَاحِدَةٍ يُقَالُ لَهَا (الرَّشَا)، تَسْكُبُ فِي الْمَاجِلَيْنِ بِالْمَعْلَاةِ ثُمَّ تَسْكُبُ فِي الْبَرَكَةِ الَّتِي عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[٥]. وبرغم الجهود المبذولة من قبل الخليفة الرشيد لتوفير الماء العذب للمجاورين، إلا أن الناس كانوا يعانون مِنَ شِدَّةِ فقد الْمَاءِ، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة وَالْحَجَاجُ والمجاورون يَلْقَوْنَ مِنْ ذَلِكَ الْمَشَقَّةَ العظيمةَ، حَتَّى أَنَّ الرَّاوِيَةَ لَتَبْلُغُ فِي الْمَوْسِمِ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ وَأَكْثَرَ، فلما بَلَغَ ذَلِكَ السيدة زُبَيْدَة بنت جَعْفَر بن المنصور، زوج أمير المؤمنين

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٠٧ ــ ١٠٨، بتصرف.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٠٩.

(٣) تحليل الفكر الاقتصادي في العصر العباسي الأول، ومدى الاستفادة منه في الاقتصاد المعاصر، ص ٦٦.

(٤) مفاتيح العلوم، ص ٦٩.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧، العقد الثمين١/ ١٣.

هارون الرشيد؛ أَمَرَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ [٨١٠م] بِعَمَلِ بِرْكَتِهَا الَّتِي بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، فَأَجْرَتْ لَهَا عَيْنًا مِنَ الْحَرَمِ[١].

عين زُبَيْدَة: في سنة [١٨٦هـ/ ٨٠٢م] خرجت السيدة الفاضلة زُبَيْدَة، زوج أمير المؤمنين الرشيد، للحج والمجاورة في بيت الله الحرام، وقد رأت في أثناء زيارتها؛ الحجاج والمجاورين وهم يحملون الماء في قرب على أكتافهم مما يسبب إصابتهم بالإعياء الشديد، والبعض يموت من التعب والفقر. فأمرت بحفر قناة[٢] لجلب الماء من مناطق تساقط الأمطار في وادي النعمان بين الطائف ومَكَّة الْمُكَرَّمَة وإيصالها إليها. وكان حفر تلك القناة يحتاج إلى مهارة كبيرة، حيث كان على المهندسين المشرفين على الحفر، أن يعالجوا طبيعة الأرض التي يجرى عليها الماء؛ كما كان لا بد لهم أن يجعلوا أثناء الحفر ميلاً في انحدار القناة بحيث يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده[٣]. يضاف إلى ذلك أن الأرض في مَكَّة الْمُكَرَّمَة أرض جبلية، صخرية في مناطق كثيرة. وهذا يجعل العمل فيها شاقًا جدًا. وذلك على عكس التربة في مصر والعراق مثلا؛ مما جعل المستشرق الألماني شاخت يثني على عبقرية العلماء المسلمين حين يقول: «وكان هناك أسلوبٌ (هيدروليكي) ينتمي بصورة واضحة - نوعًا ما - إلى التراث الإسلامي. هذا الأسلوب هو القنوات»[٤].

كانت المياه تتجمع في أحواض؛ حيث تنساب هذه المياه إلى البساتين التي كانت موجودة للاستفادة منها لريها. وهناك تتفرع منها عدة قنوات لتصل إلى عرفة، وعُمل برك ليشرب الحجاج منها بعد أن تم عمل أحواض حجرية تضمن سلامة المياه. كما تم إيصال قنوات فرعية مغلقة من القناة الرئيسة تصل على مزدلفة، ومن ثم تصب في بئر كبير في منى اسمه (بئر زُبَيْدَة)[٥]. وقد اشترت ــ رحمها الله تعالى ـ جميع الأراضي والعقارات التي تمر بها قناة العين من وادي نعمان إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة، واستمر العمل بهذه القناة ما يقرب من عشرة أعوام[٦].

هذا، ولم يكن مسار القناة على أرض مستوية، بل قطعت أودية ومرتفعات، فتنفيذها

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧، العقد الثمين١/ ١٤.

(٢) القناة: مجرى أفقي تقريبًا يمتد داخل الأرض، وفيه تنساب المياه من المناطق الغنية بها إلى الأماكن التي تفتقر إليها. (الوسيط: قنو، ٢/ ٥١٨).

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٤٨- ٢٥٠، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص ٢٣٥.

(٤) تراث الإسلام ١/ ٣٠٧.

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ٤٣٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/ ٣١٤، ٣١٧.

(٦) عرف الطيب من أخبار مكة ومدينة الحبيب، ص ١٢٦، معالم مكة التاريخية والأثرية، ص ١٩٧.

كان بمهارة هندسية كبيرة جدًا، وكانت كلفة الإنشاء عالية جدًا. فقد أخبرها أحد المهندسين المشرفين على تنفيذ المشروع بالتكلفة الزائدة، فقالت: «اعمل، ولو كلفتك ضربة الفأس دينار». فبلغت تكلفة المشروع ما يقرب من [١,٧٠٠,٠٠٠] مثقال ذهب. أي ما يساوي [٧,٢٢٥] كيلو جرام من الذهب. وقد بلغ طول القناة حوالي [١٦] كم٢ ، وحينما عُرضت عليه التكلفة بعد الانتهاء من المشروع ، قال: «تركنا الحساب إلى يوم الحساب، فمَن بقي عنده شيء من المال فهو له، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه»[١].

وقد وصف هذه القناة ابن جبير [المتوفى عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م]، فقال: «إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة، وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذي درج كثيرة جدًا، لا يصل إلى قراره إلا بهبوط كالبئر، ولظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهارًا فضلًا عن الليل»[٢].

ومما يؤسف له أن العين خربت وتهالكت مع مر السنين، ولم يستشعر بعض السلاطين أهميتها، ولم يستطع بعضهم تحمل كلفة الترميم والصيانة، إلى أن حكم السلطان سليمان القانوني [٩٣٦ - ٩٧٤هـ/ ١٥١٩ - ١٥٦٦م]، فأمر بترميمها وإصلاحها وتوسعتها عام [٩٦٩هـ/ ١٥٦١م].

استمر الوضع هكذا إلى أن وحد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود [١٣١٩ - ١٣٧٣ هـ/ ١٩٠١ - ١٩٥٤ م] المملكة العربية السعودية، فتكلفت الدولة بحمايتها وإدارتها وكونت إدارة عين زُبَيْدَة عام [١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م]، فنتج عنها إدارة أوقاف العين[٣]. وقد اهتمت إدارة العين بمرافق هذه القناة وتوفير الخدمة للحجاج والمجاورين، كما تم توسيع بعض القنوات القديمة وتوسيع القنوات الفرعية أيضًا. وقد استمر العمل على هذه القناة لأكثر من ألف ومائتي عام، إلى أن تمت الاستعاضة عن مائها بمشاريع تحلية مياه البحر التي وفرت المياه للحجاج والمجاورين[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه أن للسيدة زُبَيْدَة [١٤٥ــ ٢١٦ هـ/ ٧٦٢ ــ ٨٣١ م] مشروعًا

(١) شفاء الغرام ١/ ١٢٢، تاريخ مَكَّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، ص ٣١٥.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ١٦٥، بتصرف.

(٣) أشهر مَن تولى رئاستها عبد الله بن محمد صالح الزَّوَاوي [١٢٦٦ - ١٣٤٣هـ / ١٨٥٠ - ١٩٢٤م] الأحسائي المكيّ الحسني، مفتي الشافعية بمكة المكرمة. تعلم بها في المدرسة الصولتية، ثم كان من مدرسي المسجد الحرام، وترأس لجنة عين زبيدة. وله من المؤلفات (بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين)، ورسالة في (أحوال عين زبيدة). الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ٤/ ١٣٢.

(٤) تذكرة أولي النهى والعرفان ٤/ ١٢٧، أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز، ص ١٤٣.

آخر ــ لا يقل أهمية عن المشروع الأول ــ وهو تأمين طريق الحجيج من الكوفة بالعراق إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وتوفير برك مياه، وحفرت حوالي ثلاثين بئرًا لسقيا الحجاج، وقد أُطلق على هذا الطريق (درب زُبَيْدَة)، وهو مختلف عن مشروع عين زُبَيْدَة[١].

صفوة القول: أن السيدة زُبَيْدَة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، زوج الخليفة هارون الرشيد، قد اشتهرت بأعمال البر والخير، وإقامة العمائر، ومن أهم منشئاتها عين زُبَيْدَة بمَكَّة الْمُكَرَّمَة التي أجرت إليها الماء من وادي النعمان على مسيرة عشرة كيلو متر من مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وكان من أعظم المشاريع التي قدمتها الخلافة العباسية إلى المجاورين في بيت الله الحرام. كما مهدت طريق الحج من العراق إلى الحجاز، وشيدت عليه المرافق والمنازل، وحفرت الآبار والبرك، مما سهل على الحجاج والمجاورين سرعة الوصول إلى بيت الله الحرام.

وفي عصر الخليفة المأمون [١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣ م]، عمل على الاستفادة من كل هذه المشاريع الضخمة وربطها عبر قناة واحدة، فأَمَرَ «صَالِحَ بْنَ الْعَبَّاسِ فِي سَنَةِ عَشْرٍ وَمِائَتَيْنِ [٧٢٥م] أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ بِرَكًا فِي السُّوقِ خَمْسًا؛ لِئَلَّا يَتَعَنَّى أَهْلُ أَسْفَلِ مَكَّةَ وَالثَّنِيَّةِ وَأَجْيَادِينَ وَالْوَسَطِ إِلَى بِرْكَةِ أُمِّ جَعْفَرٍ، فَأَجْرَى عَيْنًا مِنْ بِرْكَةِ أُمِّ جَعْفَرٍ مِنْ فَضْلِ مَائِهَا فِي عَيْنٍ تَسْكُبُ فِي بِرْكَةِ الْبَطْحَاءِ عِنْدَ شِعْبِ ابْنِ يُوسُفَ فِي وَجْهِ دَارِ ابْنِ يُوسُفَ، ثُمَّ يَمْضِي إِلَى بِرْكَةٍ عِنْدَ الصَّفَا، ثُمَّ يَمْضِي إِلَى بِرْكَةٍ عِنْدَ الْحَنَّاطِينَ، ثُمَّ يَمْضِي إِلَى بِرْكَةٍ بِفُوَّهَةِ سِكَّةِ الثَّنِيَّةِ دُونَ دَارِ أُوَيْسٍ، ثُمَّ يَمْضِي إِلَى بِرْكَةٍ عِنْدَ سُوقِ الْحَطَبِ بِأَسْفَلَ مَكَّةَ ثُمَّ يَمْضِي فِي سَرَبٍ ذَلِكَ إِلَى مَاجِلِ أَبِي صَلَايَةَ، ثُمَّ إِلَى الْمَاجِلَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي حَائِطِ ابْنِ طَارِقٍ بِأَسْفَلَ مَكَّةَ»[٢].

وفي سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ [٨٣٢م] وجه الخليفة المأمون أوامره إلى أَمِيرُ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ [المتوفى عام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨ م]، بحفر بِئرٍ جديدة لتوفير الماء للمجاورين[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن القناة التي أمر بحفرها الخليفة المأمون لم تلق الرعاية المطلوبة بعده، مما أدى إلى ارتفاع الطمي بها، وقلة سريان الماء فيها، فأضرت بمصالح المجاورين في الحرم المكي. وعندما حجت أُمُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ [٢٣٢ -

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٣ ، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ١٣٦.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧، العقد الثمين ١/ ١٤.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧.

٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م] في سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ [٨٥١م]، أَمَرَتْ بإصلاح القناة، والتي تكلفت ما يقرب من اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ[١].

وأما آخر الآبار التي تم حفرها ــ خلال فترة البحث ــ فكانت في العصر العباسي الثاني، حيث أمر الخليفة الواثق بالله [٢٢٧ - ٢٣٢هـ/ ٨٤١ - ٨٤٦ م] فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ [٨٨٤م]، بُغَا الْكَبِيرُ بحفر بئر عند الشعب لتوفير الماء للمجاورين، فَأَحْكَمَهَا وَبَنَى بِجِذَائِهَا سِقَايَةً يُسْقَى فِيهَا الْمَاءُ، وَاتَّخَذَ عِنْدَهَا مَسْجِدًا يُصَلَّى فِيهِ[٢].

صفوة القول: أن الخلفاء العباسيين قد أولوا المجاورين في بيت الله الحرام أولى اهتماماتهم، وذلك بتوفير الماء العذب لهم من خلال ما قاموا به من حفر الآبار والعيون، وصيانتها والمحافظة عليها. وتبقى هذه المنشآت المعمارية شاهدة على ما وصل إليه عقل المهندس المسلم من تخطيط وتنفيذ لهذه المشاريع الضخمة، والتي شهد بعظمتها المنصفون من المستشرقين الغربيين.

ثانيًا- الكوارث البشرية

لم تقتصر المخاطر التي تعرض لها المجاورون في بيت الله الحرام على المخاطر الطبيعية فقط، بل شهد الحرم المكي كثيرًا من المخاطر البشرية، والتي راح ضحيتها كثير من المجاورين، من هذه المخاطر:

أولًا - الثورات والفتن

تعرضت مَكَّة الْمُكَرَّمَة على مدى تاريخها السياسي لكثير من الثورات والفتن، من أجل مكانتها في العالم الإسلامي، فكانت رغبة الخلفاء - على مر العصور - هو الحصول على لقب خادم الحرمين الشريفين، والدعاء له من على منبر الحرم المكي. هذه المكانة عرضت المدينة المقدسة لكثير من المخاطر التي راح ضحيتها كثير من الحجاج والمجاورين.

ومن الجدير بالذكر أنني لا أخوض في تفاصيل الثورات والفتن التي تعرضت لها مَكَّة الْمُكَرَّمَة بالتفصيل، فهي مبثوثة في معظم المصادر والمراجع التاريخية التي دونت تاريخ المدينة المقدسة، وإنما ينصب اهتمامنا في المقام الأول على أثر هذه الحركات والانتفاضات على المجاورين في بيت الله الحرام.

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٧١.

(٢) الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ١٤١.

عصر الخلفاء الراشدين: في شهر رمضان في السنة الثامنة من الهجرة [٩٢٦م] تحرك الجيش الإسلامي من المدينة المنورة بقيادة النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ لفتح مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ثم بايعته قريش، وأسلمت كلها. وعلى الرغم من الأزمات الشديدة التي تعرضت لها الدولة الإسلامية خلال عصر الخلفاء الراشدين [١١ - ٤٤هـ/ ٦٣٢ - ٦٦١م]، ابتداءً من حروب الردة، وانتهاء بالفتنة الكبرى، إلا أن المجاورين في بيت الله الحرام كانوا في أمن واستقرار، فلم يتعرضوا إلى خطر حقيقي خلال تلك الفترة.

عصر الدولة الأموية: وفي عصر الدولة الأموية [٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٤٩ م]، وبالتحديد في خلافة عبد الملك بن مروان [٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥ م]، قام عبد الله بن الزبير [٦٤- ٧٣هـ/ ٦٨٣ - ٦٩٢ م]، بثورته التي تعد من أخطر الثورات التي قامت في مَكَّة الْمُكَرَّمَة. فبعد مقتل الحسين بن علي [٤ - ٦١هـ/ ٦٢٥ - ٦٨٠ م] ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما ـ في كربلاء، خلع ابن الزبير الخليفة يزيد بن معاوية [٦٠ - ٦٤ هـ/ ٦٧٩ - ٦٨٣م]، ودعا لنفسه، فبايعته المدينة المنورة ومَكَّة الْمُكَرَّمَة، فقاتلها يزيد، ولكنه مات أثناء حصار مَكَّة الْمُكَرَّمَة عام [٦٤هـ/ ٦٨٣ م] فاستقرت الأمور لابن الزبير، وبايعته جميع الأمصار، ولم يبق لبني أمية إلا جزء من الشام فقط. فصار هو الخليفة الشرعي، كما ذهب لذلك بعض أهل العلم [١].

ثورة عبد الله بن الزبير: وبعد موت يزيد تولى ابنه معاوية بن يزيد [٦٤هـ/ ٦٨٣م] الذي استمر في الحكم أربعين يومًا فقط، وتنازل عن الحكم واعتزل الناس، فبايع الأمويون مروان بن الحكم عام [٦٤هـ/ ٦٨٣ م]، فاستطاع أن يخضع الشام كلها لسيطرته، ثم استولى على مصر من ابن الزبير، وتُوفي عام [٦٥هـ/ ٦٨٤ م]، بعد أن عهد لابنه عبد الملك بالخلافة[٢].

سيّر عبد الملك بن مروان جيشًا كبيرًا إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة بقيادة قائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥هـ / ٦٦٠ - ٧١٤ م]، وكان ابن الزبير متحصنًا بها، حاصر الحجاج مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق، وتخاذل الناس عن ابن الزبير، فقاتل مع خاصته بشجاعة نادرة عند الكعبة، حتى سقطت عليه إحدى شرفاتها فقتلته في عام [٧٣هـ/ ٦٩٢ م]؛ وبذلك خضعت المدينة المقدسة لعبد الملك بن مروان، ثم خضعت له الأمصار كلها فصار هو الخليفة الشرعي في عام [٧٣هـ/ ٦٩٢ م][٣].

(١) العقد الفريد ٤/ ٣٩٣، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٢) الأخبار الطوال، ص ٢٨٥، تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٣٠.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٩٦، الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٧٨.

ولا يخفى علينا قدر الدمار الذي لحق ببيت الله الحرام أثناء هذه المعارك، وكم لاقى المجاورون في بيت الله الحرام من عنت وشدة، مع غلاء الأسعار بسبب شدة الحصار المضروب على مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ومع أن مصادرنا التاريخية لم تمدنا بالأعداد الحقيقية لهؤلاء القتلى خلال تلك الحوادث، ولم أستطع الوقوف عليها؛ لعدم وجود إحصاء دقيق لهم. ولكننا نقرر: أن هول الصدمة كان كبيرًا، ولا شك أن عدد القتلى قد تجاوز الآلاف. يقول أحد المؤرخين: «نَصَبَ الْحَجَّاجُ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى مَكَّةَ ؛ لِيَحْصُرَ أَهْلَهَا، فَقَتَلُوا خَلْقًا كَثِيرًا، وَكَانَ مَعَهُ خَمْسُ مَجَانِيقَ، فَأَلَحَّ عَلَيْهَا بِالرَّمْيِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَحَبَسَ عَنْهُمُ الْمِيرَةَ فَجَاعُوا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، وَجَعَلَتِ الْحِجَارَةُ تَقَعُ فِي الْكَعْبَةِ .... وَمَا زَالَ أَهْلُ مَكَّةَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْحَجَّاجِ بِالْأَمَانِ، وَيَتْرُكُونَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، حَتَّى خَرَجَ إِلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ عَشَرَةِ آلافٍ، فَأَمَّنَهُمْ»[(١)].

فعدد مَن نزل من المجاورين والمقاتلين على أمان الحجاج قد وصل إلى عَشَرَةُ آلافٍ، فكم قُتل إذًا؟!

ثورة أبي حمزة الخارجي: هو: المختار بن عوف بن سليمان الأزدي، أحد زعماء الخوارج إبَّان العصر الأموي، وُلِد بالبصرة، واعتنق مذهب الإباضية، وبرز اسمه بعد مقتل الضحاك بن قيس الخارجي سنة [١٢٨هـ/ ٧٤٦م]. وكان أبو حمزة يحج إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة كل عام، ويثير المسلمين على مروان بن محمد ﷺ١٢٧ - ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ - ٧٤٩م] آخر خلفاء بنى أمية، ويحثهم على قتاله، وبايع عبد الله بن يحيى [المتوفى عام ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م]، المعروف بطالب الحق على الخلافة، ثم خرج في جمع من أتباعه، والتقى جيش عبد الواحد بن سليمان [المتوفى عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م] أمير الحجاز، وألحق به هزيمة شديدة، ودخل على إثرها المدينة سنة [١٣٠هـ/ ٧٤٧م]، وأحسن السيرة في أهلها، ثم سار يريد الشام، لكنه هُزم عند وادي القرى، وقُتل في المعركة [١٣٠ هـ / ٧٤٨ م]. وكانت هذه الثورة هي آخر ثورات الخوارج في عصر الدولة الأموية[(٢)]. يقول أحد المؤرخين: «وفي سنة تسع وعشرين ومائة [٧٤٦م] وافى بعرفة أبو حمزة الخارجي على غفلة من الناس، فخافوا منه، فسأله عامل مكة في المسألة، فوقع الاتفاق على أنهم جميعًا آمنون حتى ينقضي الحج، ثم استولى ــ بغير قتال ــ أبو حمزة على مكة بعد الحج لفرار عاملها عنها»[(٣)]. ولا يخفى علينا ما لحق بالمجاورين في بيت الله الحرام من

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٨ ــ ١٧٩، العقد الثمين ٦/ ٧٨ ــ ٨٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣١٧، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص ٤٠٢.

(٣) العقد الثمين ١/ ٣٣٨، شفاء الغرام ٢/ ٢١٤.

شدة وعنت في ظل تلك الظروف العصيبة التي لحقت بالخلافة الأموية في أواخر أيامها، حيث لم تستطع توفير الأمان اللازم للمجاورين في البيت العتيق.

هذه ـ إذًا ـ أشهر الثورات والفتن التي لحقت بالمجاورين في بيت الله الحرام في ظل الدولة الأموية، الثورة الأولى أشدها عنفًا وتأثيرًا، والثانية أقلها خطرًا وامتدادًا.

عصر الدولة العباسية: فإذا انتقلنا بالحديث إلى عصر الدولة العباسية [١٣٢ - ٦٥٦هـ/ ٧٤٩ - ١٢٠٠ م]، ـ فترة البحث ـ فإننا نجد الخلفاء العباسيين قد أولوا الحرمين الشريفين عناية فائقة، فشعر المجاورون في بيت الله الحرام في ظل خلافتهم بالأمان. فعقب استقرار الأوضاع للخليفة أبي جعفر المنصور [١٣٧ - ١٥٨هـ/ ٧٥٣ - ٧٧٤م] ثاني الخلفاء العباسيين، حج بالناس أربع سنين، وخرج للحج للمرة الخامسة في سنة ثمان وخمسين ومائة [٧٧٥م]، فمات في الطريق على مشارف مَكَّة الْمُكَرَّمَة[١].

وجاء من بعده ابنه الخليفة المهدي [١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٤ - ٧٨٥ م]، فحج بالناس سنة ستين ومائة [٧٧٧م]، وأنفق أموالاً عظيمة على المجاورين في بيت الله الحرام، وصلت إلى ما يقرب من ثلاثين مليون درهم، وخمسمائة ألف دينار، بالإضافة إلى مائة وخمسين ألف ثوب[٢].

واقتدى هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨ م] بأبيه وجده، فحج بالناس تسع حجج، وفي كل مرة يفرق في حجاته أموالًا كثيرة جدًا على المجاورين في بيت الله الحرام[٣]. ولا يخفى علينا أن مثل هذه العطايا والهبات قد أسعدت المجاورين في البيت العتيق، فأطعمتهم من جوع وأغنتهم من فقر.

ثورة الحسين بن الحسن الأفطس العلوي: بدأ الخطر الحقيقي يظهر منذ خلافة المأمون [١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣ م]، فقد قام أحد أفراد البيت العلوى بالحجاز، وهو الحسين بن الحسن الأفطس، بثورة ضد المأمون سنة [١٩٩هـ / ٨١٤م]، وشجعه على ذلك غلبة الطالبيين على الكوفة والبصرة وكور العراق. ولما رأى الحسين بن الحسن ومن معه من أهل بيته تغير معاملة الناس لهم، وبلغهم أنه قد طُرِدَ من الكوفة والبصرة وكور العراق ومن كان بها من الطالبيين، ورجعت الولاية فيها للعباسيين - اجتمعوا إلى محمد ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب [المتوفى عام ٢٠٣ هـ/

(١) تاريخ بغداد ١/ ٣٦٩، أخبار الدولة العباسية، ص ٤١٢.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٣٨٢، العقد الثمين ١/ ٣٣٩.
(٣) العبر ١/ ٣١٢، دولة بني العباس ١/ ٣٠٩.

٨١٨ م] ، وكان محببًا إلى الناس، وطلبوا منه أن يبايعوه بالخلافة، فأبى، فألح عليه ابنه علي والحسين بن الحسن حتى استجاب لهما، فبايعه الناس بالخلافة، ثم توجه إليه إسحاق بن موسى بن عيسى والي اليمن، فقاتله ببئر معونة وهزمه، فطلب محمد بن جعفر وأصحابه الأمان حتى يخرجوا من مكة فأجابهم إسحاق، وتفرق الطالبيون كل قوم في ناحية[١].

وقد ترتب على هذه الحوادث أن قام بعض الحجاج والمجاورين ـ نتيجة الثورة والجوع الذي ضرب المدينة لشدة الحصار المفروض عليها ـ بنهب بعض البساتين، ومنها بستان ابن عامر ببطن نخلة، وأُخذت كسوة الكعبة، كما استولوا على كثير من أموال الناس[٢].

فتنة إسماعيل بن يوسف العلوي الطَّالِبي: عاد الهدوء والسكينة إلى بيت الله الحرام، وسعد المجاورون بمقامهم في جوار البيت العتيق، حتى كان العصر العباسي الثاني، وفي خلافة المستعين بالله [٢٥٢ - ٢٥٨هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٦م]، وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين [٨٦٥م]، ظهرت فتنة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم العلوي الطَّالِبي بمَكَّة الْمُكَرَّمَة، فاستولى عليها، وأخذ أموال التجار، وسلب ونهب، ولقي الناس منه عنتًا شديدًا، ولم يقف الناس بعرفة لا ليلًا ولا نهارًا. وقد وصل عدد القتلى من الحجاج والمجاورين نحو مائة ألف، حتى لقبه الناس بالسفّاك[٣].

خطر القرامطة: وقد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنفًا في عهد الخليفة المقتدر بالله، ووصل مداه سنة سبع عشرة وثلاثمائة [٩٢٩م]، حينما دخلوا مَكَّة الْمُكَرَّمَة بقيادة أبي طاهر القرمطي وقتلوا نحو ألف وسبعمائة من الحجاج والمجاورين في المسجد الحرام، منهم الرجال والنساء، وهم متعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم، وفرش بهم المسجد[٤]. وقتل في سكك مَكَّة الْمُكَرَّمَة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفًا، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، واستولوا على الحجر الأسود، وأخذوه إلى مركزهم الرئيس في مدينة هَجَر، حتى تم رده إلى مكانه في عهد المطيع لله [٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٥ - ٩٧٤م] في سنة [٣٣٩هـ/ ٩٥٠م][٥].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٤، الكامل في التاريخ ٥/ ٤٦٦.
(٢) العقد الثمين١/ ٣٣٨، شفاء الغرام ١/ ٢١٦.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٩٨، الأعلام ١/ ٣٢٩.
(٤) الدرة المضية ٦/ ١٤٣، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٨-٤٩.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٩٤، العقد الثمين ١/ ٣٣٩، الاعتداء على الحرمين الشريفين عبر التاريخ، ص ٤٥.

ومن نافلة القول أن نقرر أن هذه الفتنة هي أشد فتنة تعرض لها الحجاج والمجاورون في بيت الله الحرام، على يد الشيعة الروافض، فقد ظهر ما يحملونه من حقد دفين ضد المسلمين السُنَّة، وما قاموا به من انتهاكات لحرمة النساء والأطفال، بل وحرمة بيت الله الحرام ــ أيضًا ــ يثبت صحة ما ذكرت.

عصر الدولة الإخشيدية: يعود أصل الإخشيديين إلى أتراك من مدينة فرغانة[١] إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، ومؤسس الدولة الإخشيدية هو محمد الإخشيد بن طغج [٢٥٣ - ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٥ م] وهو من موالي أحمد بن طولون [٢٥٤ - ٢٧٢هـ/ ٨٦٨ - ٨٨٥م]. فبعد الدولة الطولونية ظلت مصر تحت الخلافة العباسية مباشرة ثلاثين سنة [٢٩٣ - ٣٢٣هـ/ ٩٠٥ - ٩٣٤ م]، فتولاها محمد الإخشيد من قِبل الخليفة الراضي بالله [٣٢٢ - ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ - ٩٤١م]. وازدهرت البلاد في عهده، واستطاع أن يضم بلاد الشام، ثم ضم الحجاز، وحاول سيف الدولة الحمداني [٣٠٣ـ ٣٥٦هـ/ ٩١٦ ـ ٩٦٧م] انتزاع الشام منه ففشل، وبعد موته خلفه ابناه وكانا صغيرين، فكانا تحت وصاية مولاه كافور [٣٥٥ - ٣٥٧هـ/ ٩٦٥ - ٩٦٧ م] الذي كان عبدًا حبشيًا للإخشيد. فحكم الدولة واستبد بالأمر دونها[٢].

وفي ظل تلك الأحداث وقعت عدة مصادمات دامية بين الإخشيديين والحمدانيين، استمرت لسنوات طويلة [٣٤١هـ/ ٩٥٢م]، [٣٤٢هـ/ ٩٥٣م]، [٣٤٣هـ/ ٩٥٤م]، حتى حُسم الأمر للإخشيديين، فكان يُدعى لهم على منابر مَكَّة الْمُكَرَّمَة والحجاز[٣]. ولا يخفى علينا أن الذي كان يدفع ثمن تلك الحروب والمنازعات هم المجاورون في بيت الله الحرام، والحجاج القادمون من أقصى بقاع الأرض للتمتع بمناسك الحج والعمرة.

عصر الدولة الفاطمية: كانت الدّوْلَةُ الفَاطِمِيّةُ أو الخِلَافَةُ الفَاطِمِيّةُ أو الدّوْلَةُ العُبَيْدِيّةُ[٤] هي إحدى دُول الخِلافة الإسلاميّة، والوحيدةُ بين دُولِ الخِلافةِ التي اتخذت من المذهب الشيعي (ضمن فرعه الإسماعيلي) مذهبًا رسميًّا لها. شملت الدولة الفاطميّة مناطق وأقاليم واسعة في شمال إفريقيا، فامتدّ نطاقها على طول ساحل البحر المتوسط من المغرب إلى مصر، ثُمّ توسّع الخُلفاء الْفاطِمِيُّون أكثر، فضمّوا إلى مُمتلكاتهم

(١) الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر بين حقائق المؤرخين وأوهام المستشرقين، ص ٥٣.
(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٢/ ١٠٠- ١٠٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/ ٢١٦، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٢٥٠.
(٣) العقد الثمين ١/ ٣٣٩ ، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٣٦ ـ ٤٤٢.
(٤) البداية والنهاية ١٦/ ٤٥٤ ـ ٥٠٠ ، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٧.

جزيرة صِقِلِّيَّةُ والشّام والْحِجَاز، فأضحت دولتهم أكبر دولةٍ استقلّت عن الدولة العبّاسيّة، والمُنافس الرئيس لها على زعامة الأراضي المُقدّسة[١] وزعامة المُسلمين.

لما تولى المُعِزّ لدين الله [٣١٩ - ٣٦٥هـ / ٩٣١ - ٩٧٥م] عرش الخلافة الفاطمية سنة [٣٤١هـ/ ٩٤٥م] في بلاد المغرب العربي[٢]، اشتدت رغبته في دخول مصر، فجهز جيشًا ضخمًا بلغ تعداده مائة ألف مقاتل، بقيادة القائد جَوْهر الصقلي[٣] [المتوفى عام٣٨١ هـ / ٩٩٢ م]؛ والذي نجح في القضاء على الدولة الإخشيدية في سنة [٣٥٨هـ/ ٩٦٩م]، وأسس مدينة جديدة هي القاهرة، ولم يمضِ عامان حتى انتهى من تأسيسها، وبناء جامعها الأزهر[٤].

ولما استقر الأمر في مصر للقائد جوهر كتبَ إلى الخليفة المعز لدين الله يستدعيه ليتولى بنفسه حكم مصر. وفي [رمضان سنة ٣٦٢هـ/ يوليو سنة ٩٧٣م] انتقل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته، وأصبحت مصر دار الخلافة الفاطمية والمركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى انهيارها[٥].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة الفاطمية قد ورثت أملاك الدولة الإخشيدية في الحجاز، وصار يُدعى للمعز لدين الله الفاطمي من على منبر الحرم المكي الشريف، ومع ذلك فقد وقعت كثير من الحوادث المؤلمة خلال تلك الفترة، راح ضحيتها كثير من المجاورين في بيت الله الحرام[٦].

ثورات أهل الحجاز: بعد وفاة المعز لدين الله تولى ابنه العزيز بالله (٣٦٥ -٣٨٦هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) الخلافة الفاطمية، فانقطعت الخطبة في بلاد الحجاز للفاطميين، وعادت إلى العباسيين؛ وذلك بسبب تهديد الخليفة العباسي لأهل الحجاز. ولكن العزيز بالله لم يقف صامتًا أمام هذه الأحداث، فأرسل قائده (باديس بن زيري الصنهاجي) عام ٣٦٧هـ / ٩٧٧م أميرًا للحاج المصري، فاستولى باديس بن زيري على الحرمين الشريفين، وأقام الخطبة فيها للعزيز بالله، كما استطاع توفير الأمن لحجاج بيت الله الحرام، وذلك بعد أن جمع اللصوص وقطاع الطرق، وأمر بقطع أيديهم جزاء فسادهم في الأرض[٧]، مما

(١) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص ١٥.
(٢) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ٨٣-٩٢، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٥٩-١٦٧.
(٣) وفيات الأعيان ١/ ٣٧٦، تاريخ الإسلام ١٠/ ٣١، المقفى الكبير ٢/ ٨٤.
(٤) اتعاظ الحنفا ١/ ١٠٣، الْمُحْتَسِبُ فِي عَهْدِ الْحاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ الْفاطِمِيِ، ص ٨١.
(٥) الفاطميون في مصر، ص ١١٦، ثورات المصريين في العصر الفاطمي، ص ٥٠.
(٦) العقد الثمين ١/ ٣٣٩.
(٧) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٠.

جعل المؤرخين السنيين يشيدون به[١]. لكن الأمور لم تستقر للخلافة الفاطمية في الحجاز، حيث قامت ثورات مختلفة تنادي بالتبعية للخلافة العباسية، ومن هذه الثورات:

ثورة أبي حازم [٣٧٧هـ / ٩٨٧م] : قامت في سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م ثورة ضد العزيز بالله بقيادة ثائر يُسمَّى (أبا حازم)[٢] حاول الاستقلال بالحجاز، فقام بطرد الفاطميين منها، ولم توضح المصادر التاريخية أحداث هذه الثورة، ولكن يبدو من خلال الأحداث أن هذه الثورة لم تستمر طويلًا، حيث جهز العزيز بالله جيشًا فاطميًا، توجه إلى بلاد الحجاز، واستطاع هذا الجيش أن يقضي على هذه الثورة؛ وأن يقبض على هذا الثائر ويقطع رأسه. ومن ثم فقد عادت الخطبة للفاطميين مرة أخرى.

ثانيًا- الأوبئة والمجاعات

لا شك أن الحياة الاقتصادية قد تأثرت في بلاد الحجاز عامة، وفي بيت الله الحرام خاصة بتلك الثورات والفتن المتتابعة، فنجد أن الأسعار قد ارتفعت، ولم يوجد ما يؤكل، ومات الناس بالجوع، وخربت الأعمال، وكثر العبث والفساد، وطمع الأعراب فيه، وكثر النهب والسلب.

يضاف إلى ذلك ارتفاع الأسعار بشكل ملحوظ خلال تلك المجاعات، لا سيما سعر الخبز، ففي عام [٢٥١هـ/ ٨٦٥م]، بيع ثلاث أواق بدرهم، واللحم بأربعة دراهم الرطل، وكل شربة ماء بثلاثة دراهم[٣]. وسنة [٣٨٤هـ / ٩٩٤م] بيع الخبز أربعة أرطال بدرهم. هذا بالإضافة إلى غلاء المأكولات، فمثلاً بيع القمح كل تليس بأربعة دنانير، والأرز كل ويبة بدينار، ولحم البقر الرطل والنصف بدرهم، ولحم الضأن الرطل بدرهم، والبصل عشرة أرطال بدرهم، والجبن ثماني أواق بدرهم، وزيت الأكل ثماني أواق بدرهم، وزيت الوقود رطل بدرهم[٤].

أما على تعداد السكان، فقد كان لهذه الثورات والفتن أثر كبير على تعداد سكان الحجاز، فقد مات كثير منهم، وإن كنا لا نستطيع تحديد عدد الموتى خلال تلك الفترة بالضبط، ولكن يبدو لنا أنه كان كثيرًا جدًا؛ لدرجة جعلت المؤرخين يرددون عبارة «وكثر الموت بين الناس»[٥] في أعقاب كل فتنة.

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٢.
(٢) الدرة المضيئة ٢/ ١١٩.
(٣) العقد الثمين ١/ ٣٥٨.
(٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٤٣-٤٥.
(٥) المواعظ والاعتبار ٤/ ٧١.

المبحث الثاني: أساليب مواجهة الكوارث الطبيعية

تعددت أساليب المجاورين في بيت الله الحرام في مواجهة الكوارث الطبيعية (الأوبئة)، ولا بأس أن أُلقي بعض الضوء على أشهر تلك الأساليب التي اتخذتها الحكومات الإسلامية على مر العصور، ومنها:

أولًا- الاهتمام بالمأكل والمشرب

لم تتميز مَكَّة الْمُكَرَّمَة عن باقي مدن الحجاز، فكان أغلب أكلهم من إنتاجهم المحلي، فيتناول المجاورون في بيت الله الحرام خلال يومهم وليلتهم وجبتين أو ثلاث وجبات. وأما المشروبات الرئيسة فكانت متعددة، ويأتي في مقدمتها القهوة رمز الكرم والضيافة، وكانت تجلب من بلاد اليمن، بجانب أنواع من التمور التي اشتهرت بها مَكَّة الْمُكَرَّمَة. بالإضافة إلى الكليجا والرغيف والصبيب والفتية (خبز الجمر) والحنيني، ويسمونه (جيسر)، والفقع، وهو من الأطباق المفضلة لديهم في فصل الربيع. بالإضافة إلى أكل اللحوم من الإبل والأغنام مع الأرز والأرانب، وغيرها.

ففي خلافة مُعَاوِيَةُ بن أبي سفيان [٤١ - ٦٠هـ/ ٦٦١ - ٦٧٩ م] ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ اشترى دَارَ الْمَرَاجِلِ من آلِ الْمُؤَمَّلِ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ دَارَ الْمَرَاجِلِ؛ لِأَنَّها كَانَت فِيهَا قُدُورٌ صُفْرٌ كَانَ يُطْبَخُ فِيهَا طَعَامُ الْحَاجِّ، وَطَعَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ[1].

ثانيًا- المحافظة على نظافة الملابس

كانت ملابس المجاورين في بيت الله الحرام هي الملابس العربية، فلباس الرجال الثوب والعباءة والعقال، وهو ما يلبس فوق الرأس، كما يحملون عصا في أيديهم إذا ساروا في الطريق. أما لباس النساء فهو ساتر ومحتشم، فتلبس العباءة السوداء، وتغطي الجسم بما يتماشى مع تعاليم الدين الإسلامي ماعدا اليدين والقدمين. وأما الزينة فإن الرجال يتزينون بتكحيل العيون وحمل السلاح والعصا وإطلاق شعر الرأس واللحية، أما الشارب فالبعض يتركه والبعض الآخر يحفه. وعند النساء فكانت تهتم بجمالها حيث تعتني ببشرتها وملبسها كما تعتني بلبس الحُلي من الذهب والمجوهرات، وغير ذلك.

ثالثًا- المحافظة على الصحة العامة

كانت الصحة في مَكَّة الْمُكَرَّمَة جيدة بصفة عامة مقارنة بالبلدان الأخرى، وغالبية السكان يتمتعون بالصحة والقوة؛ نتيجة لعملهم المتواصل وغذائهم الصحي المفيد كالتمر

(١) الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ٢٨٧.

واللبن والبر؛ مما أدى إلى اكتساب أجسامهم المناعة والقوة ضد الأمراض. أما الأمراض السائدة عندهم فهي الحمى والملاريا والطاعون والجذام والجدري وأمراض العيون، كما تعرض المجاورون في الحرم المكي للأمراض المعدية كالكوليرا والطاعون في بعض السنوات، وخاصة بعد السيول[١].

وكان المجاورون يواجهون تلك الأمراض وغيرها بالتداوي بالطب البديل، أو ما يسمى الطب الشعبي، كالتداوي بالأعشاب المختلفة، وعُرف عن المجاورين الوعي الصحي، وتقبل العلاج من الْحَجَّامُين الذين كانوا يسكنون الدَّار الَّتِي عِنْدَ الْمَرْوَةِ فِي صَفِّ دَارِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَجْهُهَا شَارِعٌ عَلَى الْمَرْوَةِ [٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن صناعة الأدوية كانت رائجة في مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وخاصة في مواسم الحج والعمرة، وكان الصيادلة يقيمون في رِبَاع بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، اللَّاصِقَةِ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَكَانَتْ لَهُمُ الدَّارُ الَّتِي إِلَى جَنْبِ دَارِ ابْنِ عَلْقَمَةَ، والتي صَارَتْ لِلْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ، اشْتَرَاهَا مِنْ أَهْلِ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ وَبَنَاهَا، ويبدو أن حريقًا قد نشب في تلك الدار، ربما بسبب قيامهم ببعض الصناعات الكيمياوية التي تستخدم في صناعة الدواء. يقول أحد المؤرخين: «وكانت لهم الدَّارُ الَّتِي احْتَرَقَتْ عَلَى الصَّيَادِلَةِ»[٣].

وكان المجاورون في بيت الله الحرام يحافظون على نظافة الحرم المكي، فيذهبون إلى أماكن قضاء الحاجة خارج الحرم، فعَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ الْحَاجَةَ ذَهَبَ إِلَى الْمَغَشِّ، وَهُوَ عَلَى مِيلٍ مِنْ الحرم المكي[٤].

كما وجدت بمَكَّة الْمُكَرَّمَة كثير من الحمامات العامة التي كان يستخدمها المجاورون في بيت الله الحرام من أجل النظافة، ومنها: «حَمَّامٌ فِي دَارِ الْوَادِي، وَحَمَّامٌ أَسْفَلَ مِنْهُ إِلَى جَنْبِ زُقَاقِ الْخَيْبَرِيِّينَ شَارِعًا عَلَى الْوَادِي، وَحَمَّامُ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى عِنْدَ دَارِ الْحَمَّامِ، وَفِي شِعْبِ ابْنِ عَامِرٍ حَمَّامَانِ: أَحَدُهُمَا لِابْنِ أَخِي أَبِي خُرَاسَانَ، وَحَمَّامُ ابْنِ عِمْرَانَ الْعَطَّارِ فِي زُقَاقِ جَنْدَرٍ، وَحَمَّامُ أَحْمَدَ بْنِ سَهْلٍ فِي دَارِ عَبَّاسٍ، قُبَالَةَ دَارِ السَّعْدِيِّينَ، وَحَمَّامُ الْحُوَيْطِبِيِّينَ عِنْدَ دَارِهِمْ فِي زُقَاقٍ هُنَالِكَ، وَحَمَّامُ مَعْمَرٍ الْحَرَسِيِّ عِنْدَ دَارِ السُّلَمَانِيِّ عِنْدَ سُوقِ الْفَاكِهَةِ، وَحَمَّامُ ابْنِ حَنْظَلَةَ الْمَخْزُومِيِّ إِلَى جَنْبِهِ عِنْدَ دَارِ الطَّلْحِيِّينَ، وَبِأَجْيَادٍ ثَلَاثَةُ

(١) السيول في الجزيرة العربية، ص ٣٥٤.
(٢) الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ٢٩٩.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٥٠، الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٠٩.
(٤) الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ٢٠٠.

حَمَّامَات: حَمَّامٌ عِنْدَ دَارِ شُرَكَاءَ، وَحَمَّامٌ عِنْدَ دَارِ دَانِقٍ، وَحَمَّامٌ عِنْدَ السَّوَّاقِينَ كَانَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هَارُونَ، وَحَمَّامُ الْحَنْطِيِّ فِي زُقَاقِ التَّمَّارِينَ، وَحَمَّامُ أَبِي يَحْيَى الْمَرْوَزِيِّ شَارِعٌ عَلَى فُوَّهَةِ رَدْمِ بَنِي جُمَحٍ، وَحَمَّامٌ فِي سُوقِ الدَّجَاجِ عِنْدَ أَصْحَابِ النَّوْرَةِ، وحَمَّامٌ فِي دَارِ ابْنِ دَاوُدَ الَّتِي عَلَى الصَّفَا»[١]، وغيرها.

ونظرًا لكثرة الحمامات العامة في مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ولمحافظة المجاورين في بيت الله الحرام على نظافتهم الشخصية؛ نظافة تليق بحق المجاورة للبيت العتيق، فكانت صناعة الصَّابُونِ رائجة جدًا وكان سوقها يقام إلى جَانِب دَارِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، بالقرب من بَابِ أَجْيَادٍ الصَّغِيرِ[٢].

رابعًا- وجود المتنزهات العامة

أمرنا الإسلام بالترويح عن النفس فيما هو مباح، وقد بدأ الاهتمام بإنشاء الحدائق منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، فقد توسَّع في إنشاء الحدائق الغنَّاء والبساتين. وعندما تدفقت الأموال على المسلمين في ظل الخلافة العباسية، واتسعت رقعة الدولة، واستقر الأمن بها، وازدهرت التجارة، شيدت فيها القصور الرائعة، وانتشرت الحدائق العامة. يقول أحد المستشرقين: «ومن آثار الشرق على الغرب ـ أيضًا ـ الحدائق والعناية بها، فالحدائق الأوروبية تدين لا للعرب فقط، بل للشرق قاصيه ودانيه ـ أيضًا ـ، وذلك منذ عدة قرون، فقد أخذ الأوروبيون النباتات المفيدة للطعام، مثل الخيار والقرع والبطيخ والشمام والخرشوف والسبانخ والليمون والبرتقال والخوخ والأرز والزعفران وقصب السكر. وأخذت أوروبا ـ أيضًا ـ نباتات الزينة أزهارها مثل الكستناء والبجلة، وهي هذه الشجيرة ذات الأزهار البيضاء أو الحمراء، والياسمين والورد وخيري البر والكاميليا والسوسن... وكان العرب ماهرين في هذا الفن منذ أقدم العصور»[٣].

وكان المجاورون في بيت الله الحرام يخرجون ـ أحيانًا ـ للتنزه والترويح عن النفس فيما هو مباح، فيخرجون إلى الحدائق العامة التي أقيمت في مَكَّة الْمُكَرَّمَة والتي من أشهرها: (حديقة الْمَفْجَرُ) كانت تقع مَا بَيْنَ الثَّنِيَّةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْخَضْرَاءُ، إِلَى خَلْفِ دَارِ يَزِيدَ بْنِ مَنْصُورٍ. وَبِالْمَفْجَرِ مَوْضِعٌ يُقَالُ لَهُ (بَطْحَاءُ قُرَيْشٍ) كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَوَّلِ الإِسْلامِ يَتَنَزَّهُونَ بِهِ، وَيَخْرُجُونَ إِلَيْهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً. وكان هناك (شِعْبُ الرَّخَمِ) بَيْنَ

(١) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٤٣، الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧، ٣/ ٧٥ ـ ٢٨٣.

(٢) الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٠٧.

(٣) شمس الله تشرق على الغرب، ص ٥٦.

الرَّبَاب وَبَيْنَ أَصْلِ ثَبِيرِ غَيْنَاءَ، وَفِي هَذَا الشِّعْبِ يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّة: [من البسيط]

يَا طِيبَ مَلْعَبِنَا بِالشِّعْبِ بِالرَّخَمِ إِلَى ثَبِيرٍ إِلَى بُسْتَانِ مَسْرُورِ
إِلَى الْمَسِيلِ الَّذِي يَلْقَى مَنَازِلَنَا إِلَى الأَبَاطِحِ فَالْقَصْرَيْنِ فَالدُّورِ

وحديقة السِّدْرُ مِنْ بَطْنِ السُّرَرِ وَالأُفَيْعِيَّةِ مِنَ السُّرَرِ مَجَارِي الْمَاءِ مِنْهُ، مَسِيلُ مَكَّة السِّدْرُ، وَأَعْلَى مَجَارِي السُّرَرِ، وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّة عَنْ أَشْيَاخِهِمْ أَنَّ الثُّقْبَةَ بَيْنَ حِرَاءٍ وَثَبِيرٍ فِيهَا بُطَيْحَاءُ مِنْ بُطَيْحَاءِ الْجَنَّة.

قَالَ مَوْلَى ابْنِ صَيْفِيٍّ: كُنَّا فِي نُزْهَة لَنَا بِشِعْبِ آلِ عَبْدِ الله، فَخَرَجْنَا نَتَمَشَّى بِهِ، فَإِذَا سَعِيدُ بْنُ سَالِمٍ الْقَدَّاحُ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ فَقِيهُ أَهْلِ مَكَّة، فِي إِزَارٍ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ نَاحِيَة ثُرَيْرٍ وَمَعَهُ جَرِيدَةٌ فِيهَا ثَوْبٌ قَدْ جَعَلَهُ مِثْلَ الْبَنْدِ، وَهُوَ يَقُولُ: لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّه، قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: مَا هَذَا يَا أَبَا عُثْمَانَ؟ قَالَ: كُنَّا فِي نُزْهَةٍ لَنَا فَبَعَثْنَا الإِمَارَةَ مِنْ فُلانٍ، فَجَارَ عَلَيْنَا، فَخَرَجْنَا لَهُ ».

وحديقة الْمَشَاجِبُ: مَوْضِعٌ بِأَجْيَادَ مُشْرِفٌ عَلَى السَّلَمَات مُتَنَزَّهٌ لِلشَّبَابِ بِأَجْيَادَ الْكَبِيرِ عِنْدَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمِيَاهُ يَحْبِسُ الْمَطَرَ، كَانَ فَتَيَانٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّة يَتَنَزَّهُونَ هُنَالِكَ.

وحديقة الأَصْفَى، وَيُقَالُ الْمَصَافِيُّ، بِالدَّحْضَة: مَوَاضِعُ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْمَاءُ فِي أَيَّامِ الرَّبِيعِ وَالْخَرِيف. وحديقة بِئْرُ خُمٍّ: قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَيْثَبِ، حَفَرَهَا مُرَّةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ خُمًّا فِي الْجَاهِلِيَّة وَالإِسْلامِ فِي الدَّهْرِ الأَوَّلِ يَتَنَزَّهُونَ بِهِ، وَيَكُونُونَ فِيهَا. وجَبَلُ أَبِي لَقِيط: هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي بِأَصْلِهِ حَائِطُ ابْنِ الشَّهِيدِ بِفَخٍّ، وَقَدْ صَارَ هَذَا الْحَائِطُ الْيَوْمَ لابْنِ حَشِيشٍ الْبَزَّارِ، وَعَمَّرَهُ وَأَجْرَى لَهُ فَلَجًا، وَجَعَلَ فِيهِ النَّخْلَ وَالْبُقُولَ، وَهُوَ مُتَنَزَّهٌ لأَهْلِ مَكَّة الْيَوْمَ قَرِيبٌ ثَنِيَّة أَذَاخِرَ»[1] ، وغيرها.

سادساً- المحافظة على نظافة حلقات العلم

كانت حلقات العلم تعقد بعد انتهاء الصلوات على يد أحد العلماء، حيث يجلس الشيخ للتدريس ويلتف حوله طلاب العلم، ثم يقرأ أحدهم كتاب في التفسير أو الحديث أو التوحيد أو الفقه أو غيرها من العلوم، ويقوم الشيخ بشرح الغامض من ذلك الكتاب لطلابه، ويدور خلالها بعض المناقشات العلمية المفيدة، وكانت مدة الدراسة مفتوحة حتى يتقن الطالب العلم الذي يرغب في دراسته، ثم يعقد له حلقة علمية وطلاب العلماء وأقرانه هم الذين يحكمون على علمه وفقهه.

(١) الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ١٢٧، ١٢٩، ١٣٤، ١٦٢، ١٧١، ١٧٣، ١٨٠، ٢٠٤، بتصرف.

وقد استمرت حلقات العلماء والمشايخ في المسجد الحرام بأكمله على اختلاف مستويات الطلاب العلمية، وكانت كثير من الحلقات العلمية سببًا في القضاء على الأمية أو التخفيف منها. وكانت إنارة المسجد ليلًا من أهم العوامل التي ساعدت طلاب العلم على استذكار دروسهم، فقد وجد في الحرم ما يقرب من أَرْبَعُمائَة قَنْدِيل وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ قَنْدِيلا، بالإضافة إلى الثُّرَيَّاتُ الَّتِي يُسْتَصْبَحُ فيهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَفِي الْمَوْسِمِ ثَمَانِي ثُرَيَّات، أَرْبَعٌ صِغَارٌ وَأَرْبَعٌ كِبَارٌ، يُسْتَصْبَحُ فِي الْكِبَارِ مِنْهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَفِي الْمَوَاسِمِ، وَيُسْتَصْبَحُ مِنْهَا بِوَاحِدَةٍ فِي سَائِرِ السَّنَةِ عَلَى بَابِ دَارِ الْإِمَارَةِ، وَهَذِهِ الثُّرَيَّاتُ فِي مَعَالِيقَ مِنْ شَبَهٍ، وَلَهَا قَصَبٌ مِنْ شَبَهٍ، تَدْخُلُ هَذِهِ الْقَصَبَةُ فِي حَبْلٍ ثُمَّ تُجْعَلُ فِي جَوَانِبِ الْمَسْجِدِ الْأَرْبَعَةِ، فِي كُلِّ جَانِبٍ وَاحِدَةٌ يُسْتَصْبَحُ فِيهَا فِي رَمَضَانَ، فَيَكُونُ لَهَا ضَوْءٌ كَثِيرٌ[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرًا من ولاة مَكَّة الْمُكَرَّمَة قد عملوا على توفير الإضاءة الحسنة للمجاورين والزائرين، ومن ذلك ما قام به خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْقَسْرِيَّ [٦٦ - ١٢٦هـ / ٦٨٦ - ٧٤٣ م] فِي خِلافَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِك [٩٦ - ٩٩ هـ/ ٧١٤ - ٧١٧ م] من توفير الإضاءةَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَة. وما قام به أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَصِمُ بِالله [٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤١ م]، والذي أَمَرَ طَاهِرِ بْنِ عَبْدِ الله بن الحسين الخزاعي [المتوفى عام ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م] حِينَ حَجَّ فِي سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ [٨٣٤م] بِإِضَاءَةَ الحرم المكي، وخاصة في لَيَالِي الْحَجِّ[٢].

كما كانوا حرصين على عدم رفع الصوت في المسجد، حتى لا يؤذي أحد العباد، ويساعد طلاب العلم على الفهم والتركيز، قَالَ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيد: سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَاد «أَنَّهُ يَكْرَهُ رَفْعَ الأَصْوَاتِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَة». وعَنْ مُجَاهِد قَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ الْحَرَمَ فَلَا تَدْفَعَنَّ أَحَدًا، وَلَا تُؤْذِيَنَّ، وَلا تُزَاحِمْ، ولا تُرْفَعُ الأَصْوَات؛ تَعْظِيمًا لِمَكَّة»[٣].

كما كانوا يحرصون على نظافة المسجد عامة، وأماكن التعليم خاصة، فعن عبد الله ابْنُ الزُّبَيْرِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ كَانَ يَحُجُّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَبْعُمِائَةَ أَلْف، يَضَعُونَ نِعَالَهُمْ بِالتَّنْعِيمِ ثُمَّ يَدْخُلُونَ حُفَاةً؛ تَعْظِيمًا لَه». وقَالَ مَرْوَانُ الأَصْفَرُ: «رَأَيْتُ طَاوُسًا يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَإِذَا بَلَغَ الْبَابَ نَزَعَ نَعْلَيْهِ، وَأَخْرَجَ نَعْلا لَهُ أُخْرَى فَلَبِسَهَا وَدَخَلَ»[٤].

(١) الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ١٧٥.
(٢) الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٣٢.
(٣) الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٤) الفاكهي: أخبار مكة ٢/ ٢٥١.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر العربية:

ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (المتوفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، مراجعة: د. محمد يوسف الدقاق. بيروت: دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد، أبو الوليد الأزرقي (المتوفى عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م) : أخبار مَكَّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. مَكَّة الْمُكَرَّمَة: مكتبة الأسدي، سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي (المتوفى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م): المسالك والممالك، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة ٢٠٠٤م.

ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني، أبو الحسين الأندلسي (المتوفى عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م): رحلة ابن جبير، بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ت.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن ثابت (المتوفى عام ٤٦٣هـ / ١٠٣٧م): تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م.

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (المتوفى عام ٦٨١هـ / ١٣٨٣م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. مريم قاسم طويل، وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (المتوفى عام ٣٨٧هـ / ٩٧٦م): مفاتيح العلوم، تحقيق: فان فلوتن، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر، العدد(١١٨)، ٢٠٠٤م.

دحلان، السيد أحمد بن زيني دحلان (المتوفى عام ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦م): خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (المتوفى عام ٢٣٠هـ/ ٧٨٢م): الطبقات الكبير، تحقيق: د. علي محمد عمر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي الحنفي (المتوفى عام

٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م): تاريخ مَكَّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

الطبري، محمد بن جرير الآملي (المتوفى عام ٣١٠هـ / ٦٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م.

الفاسي، محمد بن أحمد الحسني المكي (المتوفى عام ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

ـــــــــــــــ: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

الفاكهي، محمد بن إسحاق المكي (المتوفى عام ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م): أخبار مَكَّة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله دهيش. بيروت: دار خضر للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

ابن فهد، محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد (المتوفى عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت. القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (المتوفى عام ٧٧٦هـ/ ١٣٦٤ م): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: دار هَجَر، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

المسعودي: (أبو الحسن على بن الحسين بن على، المتوفى عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (المتوفى عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري (المتوفى عام ٢١٣ هـ/ ٨٢٨م): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٢م.

ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، معجم البلدان بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (المتوفى عام ٢٨٤هـ/ ٨٢٠م) البلدان: تحقيق: دي خويه. ليدن: المكتبة الجغرافية، ١٨٩١م.

ثانيًا- المراجع العربية والمُعَرَّبة:

أحمد إبراهيم الشريف: مَكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت.

آدم متز: الحضارة الإسلامية تاريخ الحضارة الإسلامية، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمه: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

حسين باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر، وغير ذلك، جدة: دار تهامة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة: د. أحمد فؤاد باشا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد (٣٠٥)، ٢٠٠٤م.

الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

سنوكهور خرونيه: صفحات من تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، تعريب: د. علي عودة الشيخ، تعليق: د. محمد محمود السرياني، ود. معراج نواب مزرا. السعودية: مركز تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ١٤٣٣هـ.

شاخت: تراث الإسلام، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى، ومراجعة: د. فؤاد زكريا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد (٨)، ١٩٨٨م.

صالح أحمد العلي: الحجاز في صدر الإسلام، دراسات في أحواله العمرانية والإدارية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

عادل بن محمد نور غباشي: أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

عائق بن غيث: معالم مكة التاريخية والأثرية، مكة المكرمة: دار مَكَّة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

عصام عباس نقلي: تحليل الفكر الاقتصادي في العصر العباسي الأول، ومدى الاستفادة منه في الاقتصاد المعاصر، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية، إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٦هـ.

علي حسني الخربوطلي: الكعبة على مر العصور، القاهرة: دار المعارف، د. ت.

ثالثًا- الدوريات والرسائل العلمية:

فوزية حسين مطر: تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف إلى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ الإسلامي، مكة المكرمة.

محمود محمد خلف: الْمُحْتَسِبُ فِي عَهْدِ الْحاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ الْفاطِمِي، الْغَافِقِيِّ الْمَالِكِيِّ أَنَمُوذَجًا، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مركز أنثروبولوجيا الأديان ومقارنتها، دراسة سوسيو أنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، المجلد(١٥)، العدد(٢)، مايو ٢٠١٩م.

هيلة بنت عبد الرحمن السهلي: السيول في الجزيرة العربية خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وآثارها السلبية والإيجابية: دراسة تاريخية من خلال المصادر الإسلامية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، المجلد(٤٤)، العدد(١٦٩)، ٢٠١٨م.